قلعة الخطر

تأليف: مارى ستيوارت

تبسيط: سيليا تيرڤى

ترجمة: صبرى الفضل

مراجعة: مختار السويفى



١٩٨٨

روائع الأدب العالمي للناشئين

قلعة الخطر

المشرف على التحرير : مختار السويفى
الاخراج الفنى : انعام صالح

المؤلفة

ماري ستيورات هو أسم الشهرة لفلورنس رينبو ستيورات · وهى كاتبة انجليزية لقصــص المغامرات الرومانسية ، ولدت فى ١٧ سبتمبر ١٩١٦ ·

كتبت ١٤ رواية ·· كلها لها شهرة عالمية ··

ومن بين أفضلها : أخى ميكائيل ١٩٦٠ ، شجرة اللبلاب ١٩٦٠ ، غــزالو القمر ١٩٦٢ (مثلت فيلما ١٩٦٤) ، كلاب صيد جابريل ١٩٦٧ ، ثلاثية تشتمل على : كهف الكريستال ١٩٧٠ ، التلال الجوفاء ١٩٧٣، الافتتان الأخير ١٩٧٩ ·

ـ المترجم ـ

الفصــل الأول

وصلنا باريس وضوء النهار يخبو ٠٠ لم يكن أحد فى انتظارى بالمطار ٠

باريس ، يامسقط رأسى ٠ لقد عدت ثانية بعد سبع سنوات ٠٠ سبع سنوات ٠٠ انها أكثر من ثلث عمرى ٠٠ وهاأنذا الآن ، فى صالة المطار الضخمة ، محاطة بالفرنسيين وبالحديث باللغة الفرنسية ، فشعرت أننى غريبة وكأننى فى أول زيارة لى لبلد غريب ٠

وبينما كان المسافرون الآخرون يتلقون الترحاب من منتظريهم من أصدقاء وأقارب ، أخذت أبحث فى زحام الوجوه الغريبة عن وجه أعرفه ٠ ولكن كان هذا سخفا

.. فمن سيكون هناك لمقابلتى ؟ مدام دى فالى نفسها ؟ لا ، بالطبع لا .. لقد أعطتنى أجرة التاكسى فى باريس ، ولم أتوقع منها أن تفعل أكثر من ذلك لأجـــل مربية جديدة . هذا هو ماكنته ، ومن الأفضل لى أن أتذكره .

ذهبت لالتقـــاط حقيبتى التى كان مكتـــوبا عليها « الآنسة ليندا مارتن ، باريس » ، فارتطم رجل مسرع كان يمر بجانبى بذراعى ، فسـقطت حقيبة يدى على الأرض .

قال باللغة الفرنسية :

– أوه مدموازيل ، أنا آسف جدا .. هل سببت لك أى أذى ؟

والتقط لى حقيبتى من الأرض وهو لايزال يعتذر ، فأخبرته بعدم وجود أى أذى . فوجدت نفسى أتكلم اللغة الفرنسية ثانية بشـــكل طبيعى وكأننى لم أبتعد على الاطلاق . وعلى كل فغياب سبع سنوات لم يكن مدة طويلة لهذه الدرجة .

تابعت الرجل بنظرة محملقة وأنا أفر .. لابد أن أكون حريصة . هذا أمر آخر يجب أن أتذكره . فأنا انجـــليزية . انجـــليزية .. لقد كانت مدام دى فالى واضحة تماما عندما أعلنت عن حاجتها لفتاة انجليزية .

ولقد تركتها تعتقد أن معرفتى بفرنسا وباللغة الفرنسية ماهى الا مثل أية فتاة انجليزية عادية قد تعلمت بعض اللغة الفرنسية فى المدرسة . وكان يبدو أن هذا شىء هام بالنسبة لتفكيرها . فقد أرادت منى ، كما قالت ، أن أتحدث مع فيليب دائما باللغة الانجليزية حسن ، لا يمكن لأحد أن يقول بأننى قد خدعتها ، لأننى حقيقة كنت انجليزية ، فلقد كان أبى انجليزيا ، وأمى ربعها كان انجليزيا .. لقد عشنا فى باريس حتى بلغت الثالثة عشرة ، ولكن الآن تبدو تلك السنوات بعيدة وباهتة .

وكانت السـنوات السبع الأخيرة فى انجلترا أكثر واقعية بكثير . لقد قضيت خمس سنوات منها فى ملجأ للأيتام بشمال لندن ، والسنتين الأخيرتين فى مدرسة للبنين ، حيث درست اللغة الفرنسـية وقمت بأعمال أخرى متنوعة .

كنت لا أشعر تماما بأننى أنتمى لانجلترا . وبعد مأساة وفاة والدى ، لم أرد أن أكون حياة جديدة لنفسى فى بلد جديد . وكنت أقول لنفسى : فى يوم ما سوف أعود الى فرنسا !

عثرت على تاكسى وأعطيت السـائق اسم فندق مدام دى فالى . وأثناء السير فى شوارع باريس عبر

أمسية رمادية من شهر مارس ، استعدت ما كنت آلفه من مناظر وأصوات وروائح ، وشعرت اننى فى موطنى مرة أخرى ٠ ولكن لا يجب أن أفكر فى الماضى ٠ ومن الأفضل أن أفكر فى الغد وفى قصر فالمى ٠ لقد صورته فى ذهنى مئات مرات ٠

قلعة الحلم الساحرة الجميلة ، الرومانتيكية ، غير الواقعية ٠ وكانت تقع فى الجانب الآخر من فرنسا ، بالقرب من بحـــيرة جنيف ، تخيلتهـــا بين الجبال والغابات ، مثل صورة فى كتاب قصص الأطفال ٠

ابتسمت لحماقتى ، فالذى سأذهب اليه منزل حقيقى، وليس قلعة فى حلم رومانتيكى ٠ والى وظيفة حقيقية لا تختلف كثيرا عما كنت أعمله من قبل : مربية أو معلمة خاصة لفيليب ، كونت دى فالمى ، البالغ من العمر تسع سنوات ٠

هأنذا سوف أصل الفندق ، وسوف تستقبلنى مدام دى فالمى ٠٠ مدام دى فالمى التى كانت جالسة مشدودة بلا حركة على كرسيها وتبدو جميلة فى ملابسها الأنيقة ٠ وبدأت أرتب من شعرى وأنا أسترجع فى ذهنى ما أستطيع تذكره عن مستخدمى الجدد ٠

عندما تحدثت مع مدام دى فالى فى لندن ، أخبرتنى ببعض البيانات عن الأسرة ٠ لقد كان كونت دى فالى العجوز ، جد فيليب ، ثريا واسع الثراء ، وعند وفاته قسمت أملاكه بين أبنائه الثلاثة ، ايتين وليون وهيبوليت ٠٠ وآل الجزء الرئيسى من الثروة لايتين ، وهو قصر فالى والمنزل الذى يقع فى باريس ، ولليون ، الذى كان زوجا لمدام دى فالى ، عزبة فى جنوب فرنسا ، تسمى بلفين ، ولهيبوليت ، منزل كبير على ضفاف بحيرة جنيف يبعد بضعة كيلومترات قليلة من عزبة فالى ٠ وفى هذا الوقت كان ايتين غير متزوج ، وكان ممتنا عندما عرض عليه أخوه ليون أن يبقى فى فالى ويدير العزبة له ٠٠ وفضل ايتين أن يعيش فى باريس ٠ وكان الأخ الأصغر ، هيبوليت ، عالم آثار ، فعندما لا يكون مسـافرا فى الخارج فى عمله ، كان يعيش فى هدوء بمنزله فى ثونون ٠

ولقد مرت الامور بهذا الشكل لبضعة أعوام ٠٠ وبعدها تزوج ايتين ، فى سن متأخرة ، ثم أنجب فيليب بعد سـنتين ٠ ومكثت العائلة فى باريس حتى العـام الماضى ، عندما بلغ فيليب التاسعة تقريبا ٠ عندئذ ألمت به مأساة ، تماما مثل التى ألمت بى ٠ لقد لقى والداه حتفهما فى حادث طائرة ، وهما فى طريق عودتهما من

عطلة بايطـــاليا . وبعد ذلك كان على فيليب أن يغادر باريس ، ليعيش مع عمه هيبوليت فى ثونون .

كان هيبوليت لايزال غير متزوج .وقالت مدام دى فالمى :

– لقد كان مغرما دائما بالطفل . وبالطبع فالمى هى بيت فيليب الحقيقى ، ولكن هيبوليت أصر على أخذه الى ثونون فى فيلا « أنا » . ويبدو أن فيليب أحب الاقامة هناك .

وباستماعى لهذا الصوت الهادىء البارد ، اعتقدت أن هيبوليت ربما كان على صواب . فهيلواز دى فالمى لم تبدو رفيقا مناسبا تماما لولد فى التاسعة من عمره .
ولكن كان على هيبوليت أن يذهب للخارج أحيانا . ولم يمض على فيليب الا بضعة شهور فقط فى فيلا أنا عندما سافر هيبوليت الى اليونان . وكان سيبقى هناك لعدة أشهر . لذا اغلقت فيلا أنا ، وذهب فيليب الى فالمى ليبقى مع عمه وزوجة عمه .

ولم‌يكن لدى مربيته ، التى جاءت من باريس ، أى رغبة فى البقـاء فى هذا الوادى الجبلى الهـــادىء . فاستقالت من وظيفتها وعادت الى باريس . فقرروا أن يأتوا بمربية انجليزية مكانها .

وكان هذا هو سبب وجودى هنا .. وهاأنذا أمر عبر شـــوارع أعرفها .. وحدث عندئذ أمر غريب فقد جالت بخاطرى ذكرى فجائية . سمعت صوت أمى فى رأسى ، وكانت تقول ، وأعتقد أنها كانت تقرأ فى احدى الصحف :

ـ ليون دى فالمى .. ليون دى فالمى قد كسر ظهره فى حادث ركوب خيل ويقولون أنه سيقضى بقية حياته على كرسى متحرك .. انه مشلول الآن ..

ثم جاء صوت أبى :

ـ أوه ؟ أنى آسف لسماع ذلك ، ولو أننى كنت أود أن يكون قد كســـر رقبته . انك تعرفين كم أكره هذا الرجل . انه لشيطان !

وخبت الذكرى مرة أخـرى ، وتركتنى عصـــبية بعض الشىء هل لايزال هناك شىء شيطانى بخصوص ليون دى فالمى ، ياترى ؟

وسار التاكسى عبر شوارع باريس .. !

الفصـــل الثــانى

تقع بلدة ثونون الصغيرة شرق بحيرة جنيف على بعد حوالى ثلاثين كيلومترا ، على الشاطىء الجنوبى من البحـــيرة . وتأتى من بعدها بلدة ايفيلان المشـــهورة بينابيع مياهها المعدنية .

وبعد أن وصـــلت طائرتنا جنيف ، جاءتنا ســيارة ســـوداء كبيرة من فالى . وحملتنا بكل راحة عبر الشوارع العريضة للمدينة ومنها الى جانب البحيرة ، ثم انحرفت شرقا فى اتجاه الحدود الفرنسية وثونون .

ولقد تحدثت معى مدام دى فالى قليلا جدا ، فى الرحلة من باريس . وكنت ممتنة لذلك ، لأننى لازلت لا أستطيع الشعور براحتى تماما معها . كما أن هناك

احســـاسا غريبا بالتباعد من ناحيتها ، الشيء الذى يجعلها صــعبة للتآلف ، فكان الحــديث معها ليس بالسهل ، فأحيانا تسألنى سؤالا ، ثم تظهر عدم الاهتمام بالرد قبل أن أرد عليها ٠

استمرت السيارة فى المسير فى صـــمت ٠ وعلى يسارنا تظهر البحيرة من خلف الأشجار ، وعلى يميننا ترتفع الجبال الثلجية ارتفاعا شــاهقا خلف الحقول والغابات ٠ لابد أن أحدها جبل مون بلان أعلى قمم الألب فى فرنسا ٠٠ وتطلعت الى هيلواز دى فالى بجانبى لاستفسر منها ، ولكنى شعرت أن الوقت ليس مناسبا لأسألها ٠

كانت جالسة وعيناها مغلقتان ٠ كان يبدو عليها التعب والقلق ٠ انها على ما أظن ، فى حوالى الخامسة والخمسين من عمرها ، ومازالت امرأة جميلة ، بهذا النوع من الجمال الذى لا يتأثر بالسنين ، والذى كان جليا على تقاطيع وجههـــا ، بأنفها الطويل الرفيــع وبحاجبيها المقوسين برقة ٠ وكان شعرها فضيا ، ولكنه كان مرتبا بشكل بالغ الكمال ، أما بشـــرتها فكانت شـــاحبة صافية ٠ فهى تبدو آخر أناقة ، ورقيقة أكثر من اللازم ، وكالقمر فى الوصول اليها ٠

كنت أجلس قابعة فى ركنى بالسيارة ، وأمامى الكتفين العريضتين لسائق المدام ، وكانت تجلس بجانبه، ألبرتين خادمة المدام ، ربعة ومتصلبة مثله ٠

لم أحب كثيرا ما رأيته من ألبرتين ٠ انها امرأة قاتمة الوجه ، ربما فى الخامسة والأربعين ، بعينين غير صدوقتين ويدين دميمتين ٠ لم تتكلم معى على الاطلاق، ولقد رأيتها وهى تراقبنى بحملقة غاضبة ٠٠ كانت تجلس الآن فى سكون بجانب السائق ٠٠ كانا يبدوان متلائمين تماما لبعضهما البعض حتى أننى كنت أسأل نفسى اذا كانا متزوجين ، واكتشفت فيما بعد أنهما ، فى الحقيقة ، أخ وأخت ٠٠ كان لبرنارد السائق أخلاق مثالية ، ولكنه كان يبدو أنه لا يبتسم مطلقا ٠

عبرنا الحدود داخل فرنسا ، وبعدها وصلنا الى ثونون ٠ ويقع الجزء الرئيسى من البلدة مرتفعا فوق البحيرة بشكل واضح ٠ واستطعنا أن نرى من خلال الأشجار بعض المنازل الكبيرة على شاطىء البحيرة ٠ فقالت لى ، مدام دى فالمى ، أن أحد هذه المنازل هى فيلا أنا ، حيث يعيش هيبوليت ، الأخ الثالث فى أسرة فالمى ٠

وفى ثونون انحـــرفنا جنوبا فى اتجاه الجبال ٠٠ وصلنا بعدها بقليل الى واد ضيق ، حيث تقاطع الطريق مع النهر مرتين ٠ وظهرت صخور مرتفعة على الجانبين، وأصبح الوادى فى الظل ٠

بدأ الطريق فى الصعود ، ثم الصعود ، ثم جئنا عند منعطف وظهرت أمامنا من بعيد حقـــول فالمى الممتدة تحت أشعة الشمس ٠

فقالت مدام دى فالمى :

ـ هذه سوبيرو ٠٠ هناك عند مرمى البصر ٠ انها قريتنا ، قرية عائلة فالمى !

تقبع قرية سوبيرو فى غور أخضر عريض بين التلال ٠٠ انها تمتد ساطعة فى العراء والهواء المفتوح ، ببرج كنيستها ، وجسورها الثلاثة ، ومصـــنعها الصـــغير لصناعة الساعات ٠

وقلت والسيارة تهبط التل مرة أخرى بين أشجار كثيفة :

ـ وفالمى ؟ لابد أننا بالقرب منها الآن ؟

فقالت :

– هذه هى غابات فالمى على يسارك · انها تمتد عائدة على معظم الطريق الى ثونون · ويحدد النهر الحدود بين فالمى وديدون العزبة التى على يمين الطريق ·· سنعبر النهر حالا وعندئذ ··

وابتسمت ابتسامة فاترة وهى تكمل قائلة :

– سوف ترين فالمى ·

كانت تتكلم كالمعتاد بهذا الصوت البارد الواضح · ولكنى فكرت فجأة :

– انها تحس بالحنين · انها تحب هذا الوادى المنعزل · وتملكنى شـــعور مفاجىء بالعطف نحوها ، فقلت بصوت عال :

– أوه ، مدام دى فالمى ، انه لمكان جميل !

فابتسمت وهى تقول :

– نعم ، ألا ترين ذلك ؟ لقد كان بيتى لسنوات عديدة ، ولايزال ·

فقلت بعاطفة :

ـ سأحب المعيشة هنا ! اننى اشعر بذلك !

فقالت بتصلب :

ـ آمل أنك ستحبينها يآنسة مارتن ٠

ولم تكن تبتسم الآن ، ولكنها كانت باردة ومتباعدة مرة أخرى ٠ فنظرت اليها بارتياب ، والتفت ثانية الى نافذتى أتطلع منها ، فرأيت القصر فى تلك اللحظة يظهر لى ٠

كانت غابات فالى ترتفع بميل منحدر خلف النهر ،

وهناك من فوقها يقف قصــــر فالى ، مبنى مربع الشكل جميل من مبانى القرن الثامن عشـــر ٠ كيف وصلوا اليه ، انى أتعجب ؟! اذ يبدو أنه يطفو عاليا هناك فى ضوء الشمس ، فوق بحر الأشجار الداكن ٠

وأبطأت السـيارة بعد ذلك وانعطفت مبتعدة عن الطريق الرئيسى ، صاعدة على جسر حجرى صغير جميل لعبور النهر ٠ وبدأنا الآن فى صعود الطريق شديد الانحدار عبر الأشجار سائرين من منعطف الى آخر ٠ فطريق فالى كان متعرجا ٠٠ ضيقا ، منحدرا ومخيفا بعض الشىء !

وخرجنا عن الطريق الى مسطح واسع من الأرض المستوية أمام القصر ، مع حدائق معلقة ممتدة تحته ٠ واستدارت السيارة متأرجحة فى انعطاف كبير ووقفت أمام الباب الشمالى الضخم ٠

فقالت مدام دى فالى بابتسامة صغيرة عند خروجنا من السيارة :

ـ هانحن قد وصلنا !

انبهرت بانطباعى الأول للمبنى الكبير الرائع بساحته الأمامية المربعة ومدخله الكبير المقوس الذى يؤدى الى الساحة الرئيسية ٠٠ وأكثر مابهرنى هو الاحساس بوفرة نور الشمس والفضاء المكشوف ونقاء الجو وكان النور الذهبى لساعات آخر النهار فى كل مكان ٠٠ وكان الهواء بارداً وفى منتهى النقاء ، مفعما بالرائحة الحلوة لأشجار الصنوبر ، مع نتف واهنة من الثلج على فروعها ٠ لقد أصبحت بالتأكيد على مسافة بعيدة من ملجأ الأيتام فى شمال لندن ٠

تبعت مستخدمتى صاعدة السلم العريض ثم دخلنا بهو القصر ٠٠

الفصـــل الثالث

بدا بهو القصر هائل الاتساع ·· وقد يرجع السبب فى ذلك الى أنه مرتفع جدا وملىء بالظلال ··

وجاءت امرأة نحونا لترحب بنا ، قدرت أنها مدبرة المنزل · كانت امرأة صلبة فى حوالى الستين ، لها وجه صبوح وصوت منشرح وللمفاجاة ، لم يكن صوت امرأة فرنسية ·

كانت مدام دى فالى تنظر اليها ومنها الى نهاية البهو ، وقالت مستفسرة :

ـ السيد ·· هل هو بخير ؟

— أوه ، نعم يامدام ٠٠ انه كان ٠٠ أوه ، كما اعتاد أن يكون ٠٠ مهتماً بما يدور ، ولديه الكثير من **الخطط** !

لم يظهر على وجه مدام دى فالمى نفس السعادة التى ظهرت على وجه مدبرة المنزل ، **وقالت مستفسرة :**

— خطط ؟!

— نعم يامدام ٠٠ لقد كان يتحدث **عن أعمال متنوعة** يريد أن تنفذ فى المنزل وفى الحديقة ٠ **لقد اتى برجـــل** هنا الآن ليرى ما يجب عمله ٠٠ **لقد صعدا ليلقيا نظرة** على البناء الحجرى فى **الشرفة الغربية** ٠

كانت مدام دى فالمى تخلع معطفها **بحركات سريعة** عصبية ٠

وقالت بحدة :

— **هل** تعرفين اذا كان قد اتته أخبار عن مسيو هيبوليت ؟

— أعتقد ذلك **يامدام** ٠ جاءت رسالة منذ اسبوع

التفتت مدام دى فالمى نحـــوى **وتحـــدثت باللغة الانجليزية :**

ـ آنسة مارتن ، مسز سيدون هى مدبرة المنزل هنا . انها انجليزية ، وهكذا فلن تشعرى بكثير من العزلة . ان زوجها هو رئيس الخدم . هل جناح الآنسة مارتن معد يامسز سيدون ؟

ـ أوه ، نعم يامدام .

وهزت مسز سيدون برأسها وابتسـمت لى ، ثم صعدت السلم ببطء وهى تتنفس بصعوبة .

التفتت مدام دى فالى وكأنها ستكلمنى ، ولكنى رأيت عينيها تمران من عند كتفى !

ـ ليون .

لم أسمع شيئا ، والتفت بسرعة . وحتى عندئذ مرت لحظة قبل أن أرى الظل يفصل نفسه من الظلال الأخرى وينزلج للأمام .

وبالرغم من أنى كنت أعرف ما أتوقعه ، اتجهت نظرتى الى أعلى ، ثم نزلت .. الى شخص على كرسى متحرك كان ينزلج نحوى فى سكون .

شفقة ، فضول .. الأحاسيس التى انبعثت داخلى ، انقشعت جانبا مثل أوراق الشجر فى ريح قوية . لم يكن

ليون دى فالى هدفا لشفقة أحد · ولم تكن حالة شلله التى ادهشتنى ، انه كان أفضل شكل رجل رأيته فى حياتى ·· لقد أضافت السنين فقط الى شـــكله الجميل فوق العادة : شعره الرمادى مرتبط بشكل أخاذ مع عينيه السوداوين وحاجبيه البارزين بشـــكل قوى ·· وفمه المرسوم بجمال له هذه المسحة الرفيعة القاسية تقريبا والتى تحل محلها أحيانا رعشـــة ألم · وكانت يداه تبدوان ناعمتين ، وكأنهما لم يستخدما بما فيه الكفاية · وكان شاحبا أكثر من اللازم · ولكن بالرغم من ذلك ، لم يكن هذا رجلا مريضا ، انه كان سيد المنزل ·

كان يبتسم الآن وهو يحيى زوجته ، وأضـــاءت الابتسامة وجهه بشكل جذاب ·· لم يكن هناك سبب على الاطلاق يجعلنى أحس فجأة بأنى عصبية ، أو لماذا كان على أن أتخيل أن صوت هيلواز دى فالى كان غير طبيعى وهى تقدمنى له · فكرت ، وأنا أراقبها ، أنها خائفة منه ·· ثم قلت لنفسى بحدة الا أكون حمقاء ··

انحنيت قليلا الى أسفل لأصافحه ، وأنا حريصـــة الا أبدى أى علامة اندهاش أو جزع ، ولكن هذا كان خطأ ·

وسأل بلطف وهو ينظر الى زوجته :

ـ هل حذروك منى ؟

فهزت زوجته رأسها ، **وقلت فى حيرة :**

ـ حذرونى ؟

ـ أقصد عن حالتى !

فقلت بسرعة :

ـ لقد أخبرتنى سيدة ماعن الحادث الذى أصابك· اننى قابلتها على الطائرة من لندن !

ـ أوه ؟ صديقة لنا ، ربما ؟

ـ لا أعتقد ، ولكننا كنا نتجاذب أطراف الحديث ، وعندما أخـــبرتها أنى قادمة الى هنا ، تذكرت أنهـــا قابلتك ·

فسألت هيلواز دى فالمى :

ـ ما اسمها ؟

ـ لم أعرف اســـمها · انها عجوز ، وأعتقد أنها قادمة من ليون ، أو شىء من هذا القبيل · لا أذكر ·

فقال ليون دى فالمى :

– ولتكن من تكون ، فأنا سعيد أنها أخبرتك ٠
وتردد لحظة ، ثم أضاف قائلا ببطء :

– لابد أنك تظنين بعض الأشـــياء الغـــريبة عنا يا آنسة مارتن ، ولكنى اعتقد أن زوجتى لا تعبأ بأن تتكلم عن ٠٠ حالة شللى ٠ لذلك ، فمن المحتمل أن تصدم الناس الذين يقابلونى لأول مرة ٠ وأنا نفسى ٠٠ حتى بعد اثنتى عشـــرة سنة ٠٠ أخشى بشكل غير معقول مقابلة أناس جـــدد وأرى الفزع فى عيونهم ٠٠ ربما تعتقدين أننا حمقى ازاء ذلك ٠

لقد اندهشت تماما بحديثه ، حتى أننى اجبت بدون تفكير :

– لا ، أرجوك ٠٠ لا تعبأ ٠٠ ان حالة شللك هى آخر شىء قد يلاحظه اى شخص بالنسبة لك ٠٠ انها حقا كذلك ٠

وتوقفت فى فزع ٠ ليست هذه هى الطريقة لمربية جديدة أن تتحدث بها مع مستخدمها ! فقلت :

– أنا ٠٠ انا آسفة ٠ ما كان يجب ان اقول ذلك ٠ اننى قصدت فقط ٠٠

– شكرا لك ياعزيزتى ٠

ورأيت وميضا من الانشراح فى عينيه ، وهو يضيف قائلا :

— اننا مسرورين لنرحب بك فى فالى يا آنســة مارتن ٠

وبدأ عندئذ يســـألنى بعطف وحنــان عن رحلتى وتوقف احســـاسى بالضيق وعدم الارتياح ٠ لقد بذل كل طاقة سحره نحوى ٠٠ وأخذنا نتحدث ثلاثتنا لبعض الوقت ، ونسيت كل متاعبى ٠ كان مسيو ومدام دى فالى زوجين رائعين ، وهذه هى بداية حبى للحياة فى فالى وللانتماء لعائلة مرة أخرى ٠

ولكنى لم أحاول أو أفســـر ، حتى لنفسى ، لماذا ادعيت كل هذه الأكاذيب عن المرأة التى التقيت بها فى الطائرة وأنها من مدينة ليون ٠ أو لماذا لم تكن لدى الشـــجاعة لأخبر ليون دى فالى ، أننى أتحدث اللغة الفرنسية ، حتى أفضل مما يتحدث هو اللغة الانجليزية٠

وعندما صعدت السلم لمقابلة مدبرة المنزل ، لاحظت أنه يحملق فى ٠ وسمعت وفهمت الكلام الذى قاله بصوت خافت لزوجته :

— مهما كان يا هيلواز ، فمن الممكن أن تكونى قد اقترفت غلطة كبيرة ٠٠ !

كانت حجراتى من أحلى الحجرات التى عشت فيها ·· كانت بها نوافذ طويلة مواجهة لناحية الغـــرب ، وتفتح على شرفة ، ومنظر طبيعى ممتد عبر الوادى ·

فخرجت مباشرة الى الشرفة ، ووقفت مســـتندة على الحافة الحجرية ، وتطلعت الى أسفل على قمم الأشجار وتعرجات الطريق ·

وقالت مسز سيدون :

– ان الشرفة ممتدة بطول المنزل · وهذه الحجرات فى نهايتها ، خصصت لتكون جناحا للأطفال ، وهى تفتح على بعضها البعض · هذه هى حجرة الجلوس الخاصة بك ·· والآن سأريك حجرة نومك ·

كانت أحلى وأحلى من حجرة الجلوس ·· وأرتنى بابا يكاد يكون مخفيا فى الحائط ، **وقالت :**

– هذا هو الباب الى الحمام ، وحجرة نوم السيد فيليب ، تفتح عليه من الجهة الأخرى · انك تشاركين الحمام معه ·· آمل ألا تتضايقى من ذلك ؟

لقد كنا فى ملجأ الأيتام نقف صفا لدخول الحمامات ، **فقلت :**

ـ لا ، ابدا !

وعبرنا الحمام الى مطبخ صغير ، يقع خلفه مباشرة وبه موقد كهربائى فقلت :

ـ انه حديث جدا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، لقد أدخلت الكهرباء عندما ولد مستر راؤل . وكان هذا جناحا للأطفال دائما ، فالسيد وأخوته أيضا قد تربوا ، وعاشوا هنا .

فسألت :

ـ مستر راؤل ؟!

ـ ابن السيد . انه يعيش فى بلفين . انها عزبة السيد فى جنوب فرنسا .

ـ نعم ، عندى علم بالعزبة . ولكنى لم أعرف أن للسيد ابنا . ان مدام دى فالمى لم تحدثنى كثيرا .

ـ ان مستر راؤل ليس ابن المدام ، كما قد يتبادر لذهنك . فالسيد كان متزوجا قبل ذلك . وأم مستر راؤل ماتت من اثنتين وعشرين سنة ، عندما كان فى الثامنة من عمره . ولقد تزوج السيد ثانية منذ ستة

عشرة سنة ، ومضت اثنتا عشرة سنة على الحادث الذى وقع له ٠

ـ لقد عرفت ذلك ٠ هل كنت هنا فى ذلك الوقت ، يامسز سيدون ؟

ـ أوه نعم ، لقد كنت هنا ٠ لقد أتيت الى هنا منذ اثنتين وثلاثين سنة ، عندما تزوج السيد لأول مرة ٠

جلست على حافة السرير وتطلعت اليها باهتمام ، **وقلت :**

ـ اثنتان وثلاثون سنة ؟ ان هذا لعمر طويل ! هل أتيت مع مدام دى فالمى الأولى ، اذن ؟

ـ بالضبط ٠ انها كانت من شمال انجلترا ، مثلى أنا !

فقلت فى اندهاش :

ـ اذن فهى كانت انجليزية ؟

ـ نعم ، طبعا ٠ كانت فتاة جميلة ، آنسة ديبى ٠ لقد كنت فى خدمة منزلها ، منزل عائلتها منذ أن كانت فتاة صغيرة ٠ وقابلت السيد فى باريس فى احدى فصول

الربيع ، ثم تزوجته بعدها بشـــهرين .. وأرادتنى أن آتى معها الى هنا ، وقالت بأن زوجى يستطيع أن يأتى كرئيس للخدم .

ـ وعندما توفيت ســـيدتك ديبى ، ألم ترغبى فى العودة الى انجلترا ؟

ـ حســـن . ان كلينا مرتاح هنا، كما ترين . بالاضافة الى أننى منذ طفولتى وأنا مصابة بأزمة ربو وكانت حالتى الصحية سيئة فى انجلترا ، ولكنها أفضل بكثير هنا فى هواء الجبل .

ـ هذا بالاضافة لوجود ابن سيدتك ديبى ، أليس كذلك ؟ وبالطبع أردت البقاء لرعايته ؟

ـ أوه ، لقد أتوا بمربيات فرنسيات لمستر راؤل . وكان طفلا هادئا أيضا .. مثل السيد فيليب هنا ، هادىء جدا ، ولا يثير أية مشكلة . أنه مختلف جدا الآن ! آه ، حسن يا آنسة ، انه نصف أجنبى ، أليس كذلك ؟

وانتظرت فى شغف ، ولكنها لم تستمر فى حديثها . وبدلا من ذلك قالت :

ـ ان كان لى حق فى السؤال ، هل تذكرين أبويك ؟

– لقد كنت فى الثالثة عشرة من عمرى عندما قتلا ٠٠ فى حادث طائرة ، مثل والدى فيليب ٠ أظن ان المدام قد أخبرتك بأننى كنت فى ملجأ للأيتام بانجلترا ؟ ٠٠ يسمونه دار الفتيات ٠

– نعم ، حقا ٠ لقد كتبت أنها سمعت عنك من صديقتها ، ليدى بنشلى ، التى تأتى الى ايفيان كل سنة ٠

– نعم ، ليدى بنشلى كانت احدى المربيات المسئولات فى « الدار » ، وكانت تهتم اهتماما شديدا بكل البنات ٠ وعندما حصلت على وظيفة فى مدرسة بنين وجدت أن لها ابنا هناك ٠ وجاءت تتحدث معى فى يوم الزوار ، فأخبرتها بأنى أكره المكان ٠ فقالت عندئذ أن صديقة لها كانت تبحث عن مربيّة لابن أخى زوجها ٠٠ وعندما سمعت أن الوظيفة فى فرنسا فرحت جدا ٠ فأنا ٠٠ أنا ٠٠ أردت دائما أن أعيش فى فرنسا ٠ وذهبت الى لندن فى اليوم التالى ، ورأيت مدام دى فالى ٠

لقد كانت منهمكة فى البحث عن فتاة لهذه الوظيفة خلال الفترة القصيرة لوجودها فى لندن ، حتى أنها لم تسألنى كثيرا عن بياناتى الشخصية وتاريخ حياتى ٠

لقد اخبرتها أن والدى الاثنين لقيا حتفهما ، وليس لدى أقارب آخرون ، ليهتموا بأمرى .

فقالت مسز سيدون :

ـ لقد سر السيد جدا عندما وصل خطاب المدام وفيه كلام عنك . ولـــكن كقاعدة فهو يكره التغيير فى المنزل . لذلك اندهشنا كلنا عندما أعفيت مربية السيد فيليب من وظيفتها بعد وجودها مع العـــائلة كل هذه السنوات ، وقالوا أن فتاة جديدة ستأتى من انجلترا .

ـ أوه ، نعم . .اخبرتنى مدام دى فالمى عنها . ولكنها لم تعفى من وظيفتها ولم تطرد بالتأكيد .؟ لقد فهمت أنها لم ترغب فى أن تعيش فى فالمى .

فقالت مسز سيدون بحزم :

ـ أوه ، لا . لابد أنك أسأت فهم ما قالته المدام .. كانت المربية مغرمة بالسيد فيليب جدا ، وكاد يتحطم قلبها ، عندما اجبرت على الذهاب .

ـ أوه ؟ كنت متأكدة أن المدام قالت أنها قد رحلت لأن المكان منعزل جدا بالنسبة لها . لابد أننى أخطأت الفهم .

تاهبت مسز سيدون للذهاب · وبدأت أفرغ حقيبتى ·· فتوجهت هى الى الباب ، **ثم ترددت وقالت :**

– السيد ·· يبدو أنه ظريف معك ، أليس كذلك ؟

– ظريف جدا · لقد جعلنى أشعر بالاطمئنان ·

– هكذا اذن ؟ انه صعب مع الغرباء غالبا ·

– أعتقد أنه أحيانا ما تكون نفسيته سيئة · هل يأسف لحالته فى بعض الأوقات ؟

– يأسف لحالته ؟ ليس هو ! ليس بسبب بسيط مثل كونه مشلولا مدى الحياة ! ولا يوجد شىء تقريبا لايقدر على عمله · فلديه كرسيه الكهربائى والمصعد والتليفونات فى كل مكان ، وعنده برنارد ليذهب من أجله الى كل مكان ·· ولكن عندما يأتى راؤل هنا ، يذكر السيد بأنه مشلول وعاجز !

فقلت مصدومة :

– يذكره ؟

– أوه ، لا عن قصد · ولكن ·· حسن ، لعل مستر راؤل هو السيد مثلما كان منذ عشرين سنة مضت ·

ـ أوه ؟ انه يفعل كل الأشياء التى اعتاد والده أن يحب فعلها ؟ ٠٠ ركوب الخيل ، مثلا ؟

فتطلعت باندهاش وقالت :

ـ هل أخبروك عن ذلك ؟

ـ لا ، أنا ٠٠ سمعت ذلك من أناس يعرفونهم ٠

ـ أوه ، نعم كان يحب الرياضة ٠٠ جميع أنواع الرياضة : ركوب الخيل والموتوسيكلات وسباق الزوارق والسيارات ، وكانت الخيل هى الشىء الرئيسى ٠

ـ والآن ما عليه الا أن يجلس ويراقب ابنه وهو يركب ؟

فقالت مسز سيدون :

ـ أما بالنسبة لذلك ، فمستر راؤل ليس لديه المال ٠٠ والا لسار على منوال أبيه ، وعلى كل فهو لا يأتى الى هنا كثيرا ٠ ولكن فى كل مرة توجد مشكلة بسبب النقود ٠

كنت أفكر أنه اذا كان راؤل دى فالمى ، فى الحقيقة نسخة أصغر من أبيه ، فهو فى نفس الوقت يزور فالمى نادرا ٠ لم أستطع أن أتخيل اثنين من ليون دى فالمى

مرتاحين سويا فى نفس المنزل · وعند التفكير فى ليون ، جاءتنى لحظة قلق وعدم ارتياح ولكن ماذا هناك ليسبب ذلك ؟!! ذكرى عمرها اثنتا عشرة سنة ، وشـــعور بشخصيته القوية يداعباننى لا لشىء الا لاثارة قلقى ·

وخطر ببالى عندئذ ، غياب شـــخص واحد عن الترحاب بقدومى الى قصر فالى · كان هذا هو مالك القصر كله ، أهم شخص فى عائلة فالى ·· مســيو الكونت فيليب ، فسألت :

- أين السيد فيليب يامسز سيدون ؟

- من المحتمل أن يكون فى حجرة الدراســة ، فى الجانب الآخرمن حجرة الجلوس · ولكن المدام قالت لاداعى أن تزعجى نفسك معه الليلة · والآن لابد لى أن أذهب ·

وفتحت مسز سيدون الباب وقالت :

- سوف تحضر بيرث الشاى · انها الفتاة التى تخدم على هذه الحجرات ·

وذهبت مسز سيدون أخيرا ، حسن ، هناك شخص فى المنزل يحب الحديث !

وسرت عبر حجرة الجلوس ، وطرقت بلطف على باب حجرة الأطفال ، وفتحتها ··

الفصـــل الرابـــع

كان أول تفكير لى هو أنه ليس بصبى جذاب ·· كان صغيرا على سنه ، برقبة صغيرة نحيفة تحمل رأسه المستدير بشعره الأســود · كانت عيناه ســـوداوين وكبيرتين جدا ، ووجهه كان شاحبا وانتصب على قدميه ببطء ، فقلت باللغة الإنجليزية :

ـ اننى الآنسة مارتن · لابد أنك فيليب !

فأومأ برأسه وبدا عليه الخجل · ثم تذكر مركزه فمد يده قائلا :

ـ مرحبا بك يا آنسة مارتن ·

كان صوته ضئيلا رفيعا مثله · وخطرت الفكرة لى ثانية بحدة وأنا أصافحه ، فكرة أنه هو صاحب ومالك فالمى ·

وحملق فى للحظة ، ثم قال :

– هل ستعلمينني حقا اللغة الانجليزية ؟

– نعم !

فقال :

– انك لا تبدين كمربية ·

– اذن لابد أن أحاول أن أبدو كذلك ·

– لا ، أنا أحبك كما أنت ·· فلا تتغيرى ·

فضحكت وذكرنى فيليب الآن بعمه ، وقلت :

– أشكرك يامسيو الكونت ·

وبرقت عيناه السوداوان بوضوح وهو يقول :

– هل ستعطينى درسا غدا ؟

– أتوقع ذلك · من المحتمل أن تخبرنى زوجة عمك الليلة ·

ـ هل رأيت ٠٠ عمى ؟

ولاحظت أن هناك تغيرا طفيفا فى صوته الضـــئيل الرفيع ، فقلت :

ـ نعم !

كان واقفا ساكنا تماما بطريقة غير طفولية ، فأدركت فجأة بأن وظيفتى لن تكون وظيفة سهلة ٠ ولكن من الواضح انه لن يكون صعبا فى التحكم وفى السـيطرة عليه ٠٠ ولكن أليس لى أن أعرفه أولا ؟

واستقرت حياتى فى فالمى بعد ذلك على نمط بسيط ٠ تصل كل صباح مدرسة فيليب الخصـــوصية وتعطيه دروسا ، حتى موعد الغداء ٠ وعندما تنتهى أعمالى المختلفة حول حجرة الدراسة ، أصبح حرة فى أن أفعل ما أريد ٠ فأشغل نفسى بسعادة فى اكتشاف الحدائق ، أو فى القراءة التى أحبها ٠

ومكتبة القصر تحتوى بالطبع على كتب انجليزية ، ولكن حيث انها كانت حجـــرة مكتب ليون دى فالمى الخاصة ، فلم أطلب الاذن باستخدامها ٠ وكان فى حجرة الدراسة أرفف كثيرة تزخر بالكتب الانجليزية والفرنسية ٠٠ وعندما أقرأ باللغة الفرنسية ، فانى أقرأها سرا ٠

وذات مرة ضبطت متلبسة · كنت أقرأ كتابا فرنسيا فى حجرة نومى ، وكنت مستغرقة جدا فى القصة ، فلم أسمع الطرق الذى على باب · وجاءت بيرث الخادمة ، لتنظيف الحجرة ·ولم تلحظ شيئا ، ولكنى لعنت نفسى وقررت أن أكون أكثر حرصا · وتمنيت للمرة المائة لو أننى لم أبدأ مطلقا هذا الادعاء السخيف ·

لم أعد أعتقد أن يعترض أحـــد على ذلك ، فلقد أصـــبحت أنا وفيليب على وفاق تام ، وبدت مدام دى فاللى أنها تحبنى · ولكنى كنت لا أريد أن تعرف أننى قد خدعتها · وكما هو الحال مع كل خدعة ، ينمو الأمر ويكبر ، يوميا · ولحسن الحظ أنهما فى حضورى كانا يتكلمان دائما بلغتهما الانجليزية الممتازة ·

وعند بعد الظهر من كل يوم ، كنت أذهب فى جولة مع فيليب ونبدأ فى « محادثتنا الانجليزية » · وكنت غالبا ما أتكلم عن الأشياء التى نراها من حولنا ، ولكن اجاباته كانت قليلة · وأعتقد أن خجله الطبيعى قد نجم عن الفقدان المفاجىء لوالديه · وامتنعت عن محاولة سبر أغواره والتعرف على شخصيته ، فلم أرغب فى أن أقحم نفسى فى عالمه الخاص ·

ولم يكن خجله نحوى أنا فقط ٠٠ ففى كل مساء عند الخامســة والنصف ، آخذه وننزل الى حجــرة الجلوس الصغيرة ، حيث تتحدث زوجة عمه معه لمدة نصف ساعة ٠٠ كانت المحادثة صعبة ، جامدة وغير طبيعية ، ولكن فيليب كان يجيب على الأســئلة بأدب ولا يسأل أى سؤال مطلقا ، أو يبدى أية ملاحظة خاصة به ٠

لم يحضــر عم فيليب ذلك اطلاقا ٠ وفى البداية وضعت اللوم عليه لقلة اهتمامه بالصــبى الصــغير الوحيد ، ولكنى أدركت بعد ذلك أنها ليست غلطته وحده ٠٠ فقد كان فيليب يتجنبه تماما ٠

ولم يظهر لى أى سبب مقنع لهذا النفور ٠ ففى المناسبتين أو الثلاث خلال أسبوعى الأول التى التقينا فيها مع مسيو دى فالمى ، كان لطيفا جدا مع فيليب ٠ وسألته :

ـ فيليب ، لماذا تتجنب عمك ليون ؟

فظهــرت على وجهه نظرة جوفاء ، وقال باللغة الفرنسية :

ـ لا أفهم !

– انجليزى ·· من فضـــلك · وأنت تفهم جيدا تماما · انه طيب جدا معك · ولديك كل شىء تريده ، أليس كذلك ؟

– نعم ، كل شىء أريده ، عندى ·· ولكنه لا يعطيه لى ·

– من اذن ؟ هيلواز زوجة عمك ؟

فهز رأسه وقال :

– انها ليست أملاكهما ليعطيانها لى · انها كانت لأبى ، والآن فهى لى ·

فتطلعت اليه ورأيت البريق فى عينيه السوداوين · نعم ، انه الكونت دى فاللى ·

– طبعا انها أملاكك · وهو يحتفظ بها من أجلك · انه الوصى عليك ، أليس كذلك ؟

فبدت عليه الحيرة ، وقال :

– وصى ؟ أنا لا أعرف هذه الكلمة !

– انه يحافظ على فاللى الى أن تكبر · ثم تحصل عليها أنت ·

ـ هل كلمة « وصى » تعنى ذلك ؟ اذن عمى هيبوليت وصى أيضا ٠ فعمى ليون يحافظ على الممتلكات ، وعمى هيبوليت يحافظ على أنا ٠٠ لقد سمعت أبى يقول ٠٠

وبدأ يتكلم باللغة الفرنسية :

ـ ٠٠ « ليون سوف يشرف على المكان ، فنحن نثق فيه على ذلك » ٠ وأمى قالت : « ولكن هيبوليت يجب أن يأخذ الولد اذا حدث أى شىء لنا ٠ أنه لا يمكن أن يترك لليون ٠ » هذا ما قالته أمى !

وتوقف وهو يغلق فمه باحكام على الكلمة ٠ لقد لاحظت من قبل أنه لم يتحدث مطلقـــا عن والديه ٠٠ واضاف قائلا :

ـ وددت لو أنى لم أترك عمى هيبوليت ٠٠ لقد ذهب الى اليونان ٠ أردت أن أذهب معه ، ولكنه لم يستطع أن يأخذنى معه !

ـ سوف يأتى قريبا ٠

ـ نعم ٠ ولكنه وقت طويل ٠

فقلت :

— سيمر ، وأثناء ذلك سوف أهتم بك وأحافظ عليك وعمك ليون سوف يرعى فالمى · انه يقوم بذلك جيدا ، كما تعرف ·

وهكذا حقيقى · فيبدو لى أن ليون يقضى كل وقته حقا ، وكل ذاته ، من أجل هذا المكان · ويوما وراء يوم، والكرسى المتحرك يسـير حول الشـرفات والحدائق الرسمية وحدائق المطبخ والجـراجات ·· وكل مـكان يستطيع أن يذهب اليه الكرسى المتحرك ·

وفى نهاية الأسبوع الثانى لى فى فالمى ، حدث أمر جعلنى أفهم موقف فيليب ·

كنت أنا وفيليب قد نزلنا للقائنا المعتاد فى الخامسة والنصف مع مدام دى فالمى ، فى حجرة الجلوس الصغيرة ·· وكانت تصرفنا بانتظام فى السادسة ، ولكن أثناء انصرافنا نادت على لأمر ما ·

وبعد دقيقة أو أكثر قليلا غادرت الحجرة · كان فيليب واقفا ، يبدو عليه الشعور بالاثم والبؤس ، بجانب منضدة خارج الباب · وكان يوجد على كل جانب من المنضدة كرسى صغير جميل بمقعد من الحرير الأصفر · وعلى مقعد أحد الكراسى رأيت عندئذ خطا سميكا من الحبر ، كما لو أن قلما قد تدحرج من المنضدة على

الكرسى · لقد كان فيليب يكتب لعمه هيبوليت وقد وضع القلم مفتوحا على المنضدة قبل الذهاب الى الحجرة ·· انه يمسك بالقلم الآن ويحملق بوجه أبيض فى عمه ·

كان يبدو صغيرا أمام الكرسى المتحرك ، كما كان يبدو آثما مستسلما بلا دفاع · وكان عمه يتكلم بصوت غاضب مخيف :

ـ انك تأتى مرة واحدة فقط فى اليوم لهذا الجزء من المنزل ، ومع ذلك يبدو أنك لم تعرف بعد كيف تتصرف مثل أى شخص متحضر ! · · ربما فى بيتك فى باريس كانوا يسمحون لك أن تتصرف بهذه الطريقة الهمجية ، ولكن هنا ···

فقال فيليب بصوته الضئيل :

ـ هذا بيتى ··

ثم أضـــاف بصوت منخفض اكثر ، ولكنه واضح جدا :

ـ وهذا كرسى !

ونشأت لحظة صمت رهيب · وجاء شىء ما فى وجه ليون دى فالى وذهب · وأخذ فيليب خطوة الى الخلف ، وأسرعت خارجة من المدخل ·

وتطلع ليون دى فالمى نحوى ورآنى ، **ثم تكلم مع فيليب بهدوء ، وكأن غضبه لم يكن :**

ـ عندما تستعيد هدوء أعصابك وأدبك يافيليب ، سوف تعتذر على كلامك هذا ٠

وارتفعت العينان السوداوان الى ، **وقال ببرود ،**

ولكن بأدب شديد :

ـ آه ، آنسة مارتن ٠ **مع الأسف ، لقد وقع** حادث بسيط ٠ علك تأخذين فيليب الى جناحه وتقنعيه **أن الأدب** أحد خصال السادة الرجال ٠

فنظرت الى وجه فيليب الأبيض ، **وقلت :**

ـ لا حاجة لذلك ، فهو سيعتذر الآن ٠

وأخذته من كتفيه وأدرته ليواجه عمه ٠ كان ينتفض، **فقال فى صوت رفيع :**

ـ أستمحيك عذرا اذا كنت قد أسأت الأدب ٠

وتطلع ليون دى فالمى منه الى ، **وقال :**

ـ حسن جدا ،لقد نسيت هذا · والآن سوف تأخذك الآنسة مارتن لتصعد الى أعلى ·

وأثناء ذهابنا كنت شاعرة جدا بهذا الشـــاخص الكسيح الصامد الجالس هناك يراقبنا ··

بعد ذلك ساعدت فيليب على أن يبتعد عن طريق عمه ·

الفصـــل الخامس

استـــتمر جو الربيع فى روعته ٠٠ وكانت التلال مازالت مغطاة بالثلوج ولكن الوادى كان ســـندسيا أخضر ، وفى كل يوم كان يزداد اخضرارا ٠٠ !

بعد ظهر كل يوم كنت أنا وفيليب نخرج لتريضـــنا المعتاد ٠ ويبدو أن هواء الجبل جاء على هواه ، فاسترد وجهه الشاحب لونه ٠ بل وكان يضحك ويجرى قليلا هنا وهناك ٠

وكانت احدى تمشياتنا المعتادة هبوط مسار منحدر الى قرية سوبيرو ٠٠ وكان أفراد الأسرة يطلبون منا

غالبا شراء بعض الحاجيات · ويبدو أن هناك دائما شيئا ما لابد أن نحضره من الصيدلية !

وفى صباح أحد الأيام ·· وكان الأول من شـــهر ابريل ·· توجهت مع فيليب الى القرية بعد الافطـــار مباشرة · وكان اليوم الاثنين ، وكقاعدة ففى يوم الاثنين ياتى قس سوبيرو الى القصر ليدرس للكونت الصغير دروســا فى اللغة اللاتينية واليونانية والدين ·· ولكن القس كان قد أصيب فى ساقه ، ولكى لا يضـــيع فيليب دروســــه ، أخذته نازلة به الى منزل القس ، وتركته هناك ·

وكانت هذه أول مرة أكون فيها وحيدة فى القرية ·· فوقفت فى الميدان الصغير خارج الكنيسة ، ونظرت الى المشهد الآمن الذى يشع طمأنينة من حولى · كان قلبى خفيفا من السعادة ·· يكاد يطير ·· كان صباحا جميلا، وكنت خالية · حرة ·· طليقة لمدة ساعتين ، ومعى بعض النقود فى جيبى · وبدت ظلال ملجأ الأيتام تختفى وتتلاشى فى نور شمس الجبل الساطعة !

مشيت الى الصيدلية · لقد عرفنى الصيدلى جيدا بعد ترددى عليه ، ولكنى لم أرتح لمقابلته مطلقا ·

واخترت بعض قطع الصـــابون المعطرة لنفسى ، أثناء ذلك كان الصيدلى يتطلع الى بوجه عابس ، **فقلت :**

– مدام دى فالى طلبت منى أن أحصل لها على دواء القلب الخاص بها وكذلك الأقراص المنومة ٠

– حسن جدا ٠٠ **هل لديك الروشتة ؟**

– الروشتة ؟

فكرر ببطء ، وكأنه يوجه كلامه لطفلة صغيرة :

– لابد ٠٠ أن يكون ٠٠ معك ٠٠ روشتة ٠٠ من ٠٠ الـ ٠٠ طبيب ٠٠

– أوه : لا أظن أنها أعطتنى روشتة ٠ هل يمكن لى أن أحضرها المرة القادمة ، مسيو ؟ لقد طلبت المدام شراء هذا الدواء بشكل خاص ٠

– لا ، لا أستطيع أن أعطيك الدواء بدون روشتة ٠

وكان من المســتحيل اقناعه ٠ فأخذت اتابع قائمة الأشياء الأخرى المطلوبة منى ، **واضفت قائلة :**

– ودواء الربو لمسز سيدون ٠٠

فقال الصيدلى :

ـ لقد أخذته الأسبوع الماضى ٠

ـ لا أظن ذلك ، انها وضعته فى قائمة اليوم ٠

ـ أعرف أنك أخذته ٠ ربما نسيت أن تعطيه لها ٠ انها لم تعطك الروشتة ، أليس كذلك ؟

ـ لا أذكر ٠٠ أوه ، هاهى ، فى حقيبتى !

فنظر اليها وقال فى شماتة :

ـ انها ليست لمدام سيدون ٠ انها لمدام دى فاللى ٠ دواء القلب الخاص بها ٠٠

فابتسمت له قائلة :

ـ أوه ، فهى معى طول الوقت ! اذن يمكنك أن تعطينى الدواء على كل حال ٠

وبدلا من أن يرد الابتسامة ، رمقنى بنظرة غريبة ، **وقال :**

ـ نعم ٠ هاهو ٠٠ ولابد أن أهنئك على طريقة تحسن لغتك الفرنسية يامدموازيل ٠

فقلت :

– شكرا مسيو ، انى أبذل كل جهدى وادرس كل يوم · وقريبا سوف تنسى أنى انجليزية ·

فكرر صـــوت رجـل من خلفى مباشــــرة الكلمة مستفسرا :

– انجليزية ؟

فنظرت خلفى مندهشة · كان يقف فى مدخل الباب شاب ضخم ، وظله يملأ المحل · وجاء نحوى ، وقال :

– معذرة ، لكن هل أنت انجليزية حقا ؟

– نعم ·

– أوه ، أنا ·· أنت نجدة من السماء !

وأرخى بصره على بخجل · فرأيت عينين زرقاوين فى وجه لفحته الشمس ، وشعرا أشقر غير مرتب وكثيفا وتساءل الشاب قائلا :

– أتساءل ·· هل يمكن أن تساعدينى ؟ لدى قائمة طويلة من الأشياء أريد الحصول عليها ، ولا أتكلم اللغة الفرنسية · ويبدو أنك تتحدثين بها جيدا ·· !

فابتسمت قائلة :

ـ بالطبع ساساعدك ·· لابد أنك شجاع لتأتى فى اجازة هنا بدون أن تعرف اللغة الفرنسية ·

ـ أجازة ؟ أنا هنا فى عمل ··

فنظرت الى قائمته ، وقلت :

ـ يبدو أنه عمل خطر ، اذا أنت تحتاج لكل هذه الأدوية والضمادات !

فضحك وقال :

ـ ما أنا الا مهندس غابات ·· انى معسكر فى كوخ فى الغابة على ارتفاع ألف ومائتى متر ، ولذلك فكرت أن أحصل على بعض الأشياء فى حالة حدوث أى حادث أو مرض ·

حملقت فى الجسم الصلب الضخم الواقف بجانبى · انه بكل تأكيد لايبدو رقيقا ، وقال :

ـ الشىء الوحيد فى القائمة والذى سأحتاجه بالتأكيد هو آخر واحد · وأستطيع أن أطلبه بنفسى اذا اقتضى الأمر ·

ـ براندى ؟ نعم ، بالتأكيد تستطيع ذلك ·

والتفت الى الصيدلى وأخذت أتابع القائمة ببعض الصعوبة · ودفع الشـــاب الانجليزى ثمن مشـترياته والتقطت أشيائى واستدرت للانصراف · وعندما وصلت الى الباب ، **قال الصيدلى بصوته البارد الرخو :**

– لقد نسيت دواء القلب لمدام دى فالى ·

ومد يده باللفافة لى · وكان وجهى أحمر عندما لحقت بالشاب الانجليزى ·

وبادرنى بابتسامته الخجولة قائلا :

– مازال على أن أشـــترى البراندى · ترى هل ستساعدينى فى شراء ذلك أيضا ؟

– قلت أنك تستطيع أن تطلب ذلك بنفسك ·

– أنا ·· حسن ، آمل أن تأتى معى ودعينى أدعوك على شراب ، لأشكرك على ما أسديته لى من معروف ·· أرجوك ·· !

فقلت :

– اننى مستعدة لذلك ·· فلا مانع !

كانت المقهى مجاورة للصيدلية · فجلسنا فى الشمس

على احدى الموائد خارج المقهى ، وطلبنا قهوة ، وقال رفيقى :

ـ اسمى بليك · وليم بليك ·

ـ اسم لطيف ·· تشرفت بمعرفتك ، واسمى ليندا هارتن ··

ـ لو حق لى السؤال · ·ماذا تفعلين فى سوبيرو ؟

ـ أنا هنا فى عمل أيضا ·· اننى مربية ·

ـ طبعا · لابد أنك الفتاة الانجليزية من فالى ·

ـ نعم ·· سمعت عنى ؟

ـ كل شخص يعرف كل شخص آخر هنا ·· على أية حال أنا جار قريب ·· اننى أعمل فى العزبة المجاورة ·

فقلت باهتمام :

ـ أوه ، ديودون ؟

ـ هى · مالكها يقضى معظم وقته فى باريس أو الجنوب · ومثل مستخدمك ، فهو يحصل على كثير من دخله من أشجاره ومزارع كرومه ·

– مزارع كروم ؟ لا توجد مزارع كروم فى فالى ٠

– لا ، ولكن هناك عزبة فى الجنوب على ما اعتقد ٠

– نعم بلفين ٠ ولكن هذه من أملاك مسيوى دى فالى الخاصة ٠ وبالتأكيد لن ينفق دخلها على فالى ٠

– حسن ، الناس تقول أن معظم دخل بلفين كان يأتى الى هنا حتى بضعة سنين مضت ، كانت توجد وفرة من المال ، على أية حال ٠

فقلت :

– وهل لايزال ، أو هكذا يبدو ٠

– نعم ، سمعت أن الأمور تتحسن ثانية ٠

ونظر الى ، وأضاف قائلا :

– مربية ٠ انها حياة رهيبة ، أليس كذلك ٠

– ممكن أن تكون كذلك ٠ ولكنى أحبها ٠ أحب فيليب ٠٠ تلميذى ٠٠ وأحب المكان ٠

– ألست وحيدة ٠٠ أقصد بعيدة عن الوطن ٠٠ ؟

فضحكت قائلة :

ـ وطنى فى انجلترا كان خمس سـنوات فى ملجأ الأيتام . وفالى عبارة عن مغامرة غريبة بالنسبة لى !

ـ أعتقد ذلك . هل هذا ما تريدينه ، مغامرة ؟

ـ طبعا ! من لا يريد ؟

فقال مستر بليك بحزم :

ـ أنا لا أريد !

ـ وما الذى جعلك تأتى الى هنا ؟ احكى لى عن عملك .

ـ لا يوجد مايستدعى أن أحكيه .

وفعلا فليس هناك الكثير ليقوله . فحياته سارت على وتيرة منتظمة . بيت طيب ومدرسـة مناسبة ، وسنتين فى الجيش ، ثم الجامعة .. وبعدها القرار فى الذهاب لدراسـة خاصـة ، مدتها سنتين ، فى بعض أمراض أشجار الصنوبر . وبدأ يتحدث عن عمله . ان الحياة فى غابة الصنوبر لا تنقصها المغامرة ، فالأشجار كما هو واضح تهاجمها أنواع شتى من الحشرات ، الشىء الذى يجعل النهار مليئا بالاثارة . وأثناء حديثه أصبح منفعلا بالحماس لعمله .

وأوقف نفسه فجأة ، وأحمر وجهه بعض الشيء ، وقال :

ـ حسن ، على أية حال ، هذا هو السـبب فى وجودى هنا · ومستخدمى انسان طيب جدا ·· انه صديق لوالدى · لقد أعطانى هذا العمل وهو أن أعتنى بغابته ، وبالتالى أستطيع أن أقوم بدراساتى وأكسـب بعض المال فى نفس الوقت ·· انى أستفيد خبرة قيمة وأنا أحب العمـل فى هذا البلد · ولكن هناك الكثير لتعلمه ، بما فى ذلك اللغة ·

ـ اذا كنت تعيش بمفردك ، فلا أرى سببا لاحتياجك لها ·

ـ أوه ، اننى لست فى الكوخ طول الوقت · وأنا أنزل الى « كوك هاردى » كثيرا ·· ذلك المقهى القريب من سوبيرو انه مفعم بالضجيج ، ولكن صاحبه يتكلم اللغة الانجليزية والطعام فيه جيد ·· آه ، هل هذا هو صبيك الصغير ؟

استطعنا رؤية بوابة حديقة القس وهى تفتح ، وظهر فيليب مع مدبرة منزل القس · نهضت على قدمى فرآنى الصبى وركض عبر الميدان فى اتجاهنا · فقلت له :

ـ لقد خرجت مبكرا عن موعدك يا فيليب · ! هل تعب القس منك ؟

ـ لا ·· انه متعب ، ولكن ليس ·· منى ··

ـ فهمت · فيليب ، هذا هو مسيو بليك الذى يعمل فى عزبة ديودونى ·· مستر بليك ، الكونت دى فالمى ·

فتصافحا ، وساله فيليب :

ـ ماذا تعمل فى العزبة يامسيو ؟

ـ انا مهندس غابات ·

ـ مهندس غابات ·· أوه ، فهمت · نحن لدينا مهندسين غابات فى فالمى ·

ـ أعرف · لقد قابلت واحـــدا أو اثنين منهم · وهناك واحد يسكن بجوار « كوك هاردى » ·

فقال فيليب :

ـ أما بالنسبة لذلك ، فانا لم أتعرف عليهم بعد · فلم يمر على وقت كبير هناك ·

ـ نعم ، أعتقد أن عمك هو الذى يدير هذه الأمور ·

فقال فيليب :

– نعم ، انه ·· الوصى ·· على ·

وكان فخورا أنه تذكر الكلمة ، فابتسم وليم وقال :
– أنا سعيد بلقائنا هذا !

فقلت :

– من الأفضل أن ننصرف ، مستر بليك ·· شكرا جزيلا على القهوة ·· وأنا سعيدة جدا بلقائنا !

– أوه أرجوك ·· لا تذهبى وتختفى · متى نستطيع أن نلتقى ثانية ؟ هل أنت غير مشغولة فى المساء ؟

– يوم الجمعة فقط ·

فقال بنبرة خيبة أمل :

– اوه ، ان هذا ســـىء لى · لقد وعدت بعض الأصدقاء لمقابلتهم ·

فقلت :

– لابد أن نذهب الآن · بالتأكيد سوف نلتقى ·· فالوادى ليس كبيرا ·

واثناء عبورنا للميدان ، رأيته يلملم فى مشترواته، ويتأهب للذهاب هو الآخر ··

الفصــل السادس

ذلك المساء تهشمت وتيرة حياتنا الهادئة · وكنا قد انتهينا من تناول الشاى فى حجرة الدراسة · وكان فيليب يلعب ببعض عساكر من الدمى أمام المدفأة ، وأنا جالسة أقرأ له بصوت عال ، عندما سمعت صوت سيارة تتسلق المنعطفات ، وتقترب رويدا ، رويدا ·

فرفع فيليب رأسه وقال :

ـ سيارة ! شخص ما قادم !

وقفز ناهضــــا وركض ليفتح النافذة الطويلة · واختفى جهة اليمين بمحاذاة الشرفة · فأسرعت وراءه وصحت قائلة :

– فيليب ! ماذا أنت فاعل ؟

لقد ركض الى نهاية الشرفة حيث تطل على الساحة الأمامية ، وكان يميل بقامته فى لهفة ، فقلت :

– ســـوف تقع اذا تعلقت هكذا · انتبه ، فافريز الشرفة ليس ثابتا ·· أنا متأكدة ، فهذا الحجر الكبير يتحرك · لابد أنها أحد الأجزاء التى سوف يصلحونها ·

ولكنه لم يصغ الى ، فقلت بحزم :

– ارجع فورا يافيليب · من يكون هذا ، على أية حال ؟

تأرجحت السيارة مندفعة داخل الساحة الأمامية ، وأضواؤها تنعكس فى بريق على القضبان الحديدية المدببة التى أسفلنا وخرج رجل وذهب ناحية السلالم الأمامية ·

استدار فيليب فى صـمت وقفل راجعا الى نافذة حجرة الدراسة · وتبعته للداخل · كان منتصبا بجانب المدفأة ، ووجهه وكل جسده ينبىء عن خيبة أمله بشكل حاد الى أن جلست ثانية بدون أى كلمة ·

وبعد بضع دقائق قلت فى عدم اكتراث :

– من كان هذا ، هل تعرف ؟

ـ مسيو فلوريمون ، على ما أعتقد ٠

ـ مسيو فلوريمون ؟ انك لا تقصد مصمم الأزياء المشهور ، هل هو ؟

ـ انه هو ٠٠ اعتاد أن يزورنا كثيرا فى باريس ، وهو صديق لزوجة عمى ٠ هل تعرفونه فى انجلترا ؟

ـ طبعا ٠

حتى فى دار الفتيات ، سمعنا عن فلوريمون العظيم ٠٠ انه واحد من أشهر مصممى أزياء فى باريس ٠٠

واضفت مستفسرة :

ـ هل هو جاء ليبقى ؟

ـ لا أدرى ٠

وعبر صوته ايضا على أنه لا يعبأ ، فقلت بلطف :

ـ هل كنت تتوقع أحدا آخر يافيليب ؟

فرفع بصره محملقا ، ثم أخفضه ٠

ـ ابن عمك راؤل ، ربما ؟

فلم يجب ، فحاولت ثانية :

– ألا تحب مسيو فلوريمون ؟

– نعم ، أحبه جدا ٠

وحذرني شيء ما في وجهه أن أتوقف عن توجيه الأسئلة له ٠ وقلت :

– جاء موعد نزولنا لمقابلة زوجة عمك ٠

وفي حجرة الجلوس كانت مدام دي فالي ومسيو فلوريمون ، يجلسان على كنبة مزينة برسومات الورد ، يتبادلان أطراف الحديث ٠

تطلعت باهتمام الى زائرنا ٠ لا أدري ماذا كنت أتوقع أن يبدو واحد من « الخمسة الكبار » في تصميم الأزياء ، أعرف فقط أن فلوريمون العظيم لم يكن يبدو كما توقعت ٠ كان كبير الحجم ، أشيب الشعر وغير مهندم ٠ كانت عيناه الزرقاوان عطوفتين ٠

كان يحكي قصة ما ، ومدام دي فالي تضحك ، وكانت تبدو أسعد عما شاهدتها عليه من قبل ٠ وأدركت كم كانت حلوة ، قبل أن يمتص الزمن والمأساة الحياة من وجهها ٠

والتفتت ورأتنا بجوار الباب فاختفت فرحتها ٠٠

ولحسن الحظ ، لم ير فيليب الضيق المرسوم على وجهها وهو يتقدم نحو فلوريمون الذى كان يحييه بضجيج من السعادة والحبور :

ـ فيليب ! ياللسعادة ! كيف حالك ؟

ـ اننى بخير ، أشكرك يامسيو ·

ـ يبدو أن هواء فالى يناسبك · طبعا ، عندما يكون الانسان محظوظا بما فيه الكفاية ويحظى بآنسة جميلة كمرافقة له ، فمن المتوقع أن يبدو فى أحســـــن حال !

كانت هذه الملاحظة فوق فهم فيليب بلاشك · ولما كانت باللغة الفرنسية ، فلابد أن تكون فوق فهمى أنا أيضا ·

فقالت هيلواز دى فالى :

ـ لا تضيع سحرك هباء ياكارلو ، أن لغة الآنسة مارتن الفرنسية تتحسن كل ساعة ، كما قيل لى ، ولكن لا أعتقد أنها وصلت هذه المرحلة بعد ·

ثم أضافت باللغة الانجليزية :

ـ آنسة مارتن ، دعينى أقدم لك مسيو فلوريمون سوف تسمعين عنه بلا شك ·

فقلت وأنا أصافحه :

ـ حتى فى ملجأ الأيتام سمعنا عن مسيو فلوريمون .. ولكنى منذ أن جئت الى فالمى فقط سعدت بأن أشاهد ابتكاراته تلبس كما يجب أن تلبس .

والتفت نحو مدام دى فالمى ، التى قالت :

ـ أشكرك يا آنسة مارتن .

وكانت عيناها تشعان محبة وعطفا وهى تبتسم لى .

ولكن حتى أثناء ما كنت أعيد الابتسامة لها تسربت المحبة بعيدا ، ونحت وجهها لتلتفت الى شغل الابرة المنشغلة به . وقبل أن تبعد عينيها ، أعتقد أنى رأيت نفس النظرة القلقة الغريبة التى لاحظتها فى يومى الأول فى فالمى .

طردت الفكرة فى الحال . فلم أعد أتخيل أنها تخاف زوجها ، فمن الجلى أن الاثنين متقـــاربان جدا ، أما موقفها منى .. ومن فيليب أيضا .. فكان جزءا من جمودها العام . وقد يأخذ وقتا ليذوب ، وقالت :

ـ تعال يافيليب واجلس بجانبى . لا يا آنســـة مارتن لا تهربى . اجلسى وضيفى مسيو فلوريمون .

وأثناء القائها الأسئلة المعتادة على فيليب عن نشاطه اليومى · قص على مسيو فلوريمون حكايات مسلية عن حياة باريس · وانغمست فى الحال كلية فى قصصه ·· على الأقل كان يجب على ان افعل ذلك ، لولا انى شعرت أن هيلواز دى فالمى تراقبنى بذلك التعبير الغريب ، ولولا أننى كنت أتساءل داخل نفسى من الذى بلغ عن تحسنى فى اللغة الفرنسية من ساعة لأخرى ·

وذكرنى دخول سيدون بصينية المشروبات بالوقت ، وقصدت الهروب مع فيليب قبل وصول عمه · كنت معطية ظهرى للباب : وكانت لفتة رأس فيليب السريعة هى التى أنبأتنى بأننى قد تأخرت · وقال صوت ليون دى فالمى الجميل :

ـ آه ، فيليب · لا ، لا تتحرك · كارلو ! أهلا ، أهلا ! ما الذى جاء بك الى جنيف ؟

وتحرك الكرسى فى سكون الى الأمام ·

ـ جئت وراء الخامات من أجل مجموعتى التالية ·

فسألت المدام :

ـ وكيف تسير المجموعة ؟

– لقد بدأت لتوها ٠ أوه ، على فكرة ، هناك كتلة من الضباب جاسمة على الطريق بين ثونون وهنا ٠

كان ليون دى فالى مشغولا فى صينية المشروبات ، وناول زوجته كوبا ، وقال :

– حقا ؟ هذا شيء سيء !

– فى بعض الأماكن ٠ لكن أعتقد أنها محلية فقط ٠ أه ، شكرا ٠

وانفتح الباب ودخلت سيدون وقالت :

– مدام ، رسالة تليفونية جاءت لتوها من مسيو راؤل ٠

فرأيتها تحملق فى زوجها وهى تقول :

– نعم ياسيدون ؟

– سألنى أن أخبرك أنه فى طريقه الى هنا يامدام ٠

فوضع ليون دى فالى كوبه جانبا فجأة وقال :

– فى طريقه ؟ هنا ؟ متى ؟ من أين كان يتكلم ؟

– لم أستطع أن أعرف ياسيدى ٠ لكنه لم يكن فى بلفين ٠ قال أنه سيكون هنا خلال الليلة ٠

ثم قال فلوريمون :

ـ ظريف ! آمل أن يكون هنا على العشاء ؟

فقالت سيدون :

ـ لا يامسيو · قال أنه سيتأخر عن العشـــاء لكنه سيكون هنا الليلة ·

فقالت مدام دى فالى :

ـ هل بدا من كلامه بأن هناك أى شىء خطأ ·· فى بلفين ؟

ـ لا يامدام على الاطلاق ·

فقال فلوريمون :

ـ لا تقلقى هكذا ياعزيزتى ، من المحتمل أنه يهرب من العاصفة السمجة التى حلت بهم هناك ·

فقال ليون بجفاء :

ـ انه عادة لا يهرب فى هذا الاتجاه ·

فرأيت المدام تحملق ثانية فى زوجها ، وكان وجهها قلقا وشاحبا ··

وبعد أن دخل فيليب فى سريره ، **تعشيت بمفردى فى** حجرتى · كانت البرتين ، خادمة مدام دى فالى عابسة الوجه ، هى التى أحضرت العشاء لى ·· ووضعت الصحون على المائدة فى صمت غاضب · **فقلت بابتهاج :**

– شكرا يا البرتين ، أوه ، وعلى فكرة ، هل يمكن أن تتذكرى اذا كنت قد أحضرت دواء مسز سيدون الأسبوع الماضى أم لا ؟

فقالت البرتين :

– لا ··

واستدارت للذهاب ·

– هل تقصدين أنى لم أحضر الدواء أم أنك لا تذكرين ؟

– أقصد لا أدرى ··

ونظرت لى بعينيها السوداوين بشىء من الكراهية، **وأضافت قائلة :**

– لماذا لا تسأليها بنفسك ؟

فقلت ببرود :

ـ حسن ، سأفعل ٠

وبعد قليل عندما جاء طرق الباب ودخلت مسـز سيدون ، قلت لها :

ـ هذه المرأة البرتين ٠٠ ماذا بها ؟ أنها ودودة كالثعبان ٠

ـ أوه ، لقد تضايقت لأنى طلبت منها أن تحضر لك العشاء ، طالما أن بيرث منهمكة فى اعداد حجرة لمستر راؤل ٠ انها فى حموضة اللبن الفاسد خصوصا لو طلبت منها أن تفعل أى شىء خارج حجرات المدام الخاصة ٠ واعتقادى أنها تشعر بالغيرة حتى اذا ابتسمت المدام لأى أحد غيرها ٠

فضحكت ، وسألتها :

ـ كيف حال الربو ؟ مع الأسف لم يعطنى الصيدلى دواءك اليوم ٠ قال أنى أخذته الأسبوع الماضى ٠ هل تذكرين يامسز سيدون ؟ هل أعطيته لك ؟

ـ حسن ، لا أستطيع أن أتذكر حقيقة ، طالما أنى لم احتاج له حتى الآن ٠ سوف ألقى نظرة فى حجرتى ٠

ـ هل مسيو فلوريمون سيمضى الليلة هنا ؟

ـ انها جاء للعشاء فقط ، ولكنه قد يبقى الليلة اذا ازداد الضباب ٠

فنهضت وذهبت عند نوافذ الشرفة ٠

ـ أنا لا أرى أى ضباب ٠ انها تبدو ليلة صافية !

ـ أوه ٠ اننا مرتفعون هنا ٠ ولكن الطرق تسير بمحاذاة النهر ، ولقد وقعت حوادث فى الوادى بسبب الضباب ٠

ـ ربما مسيو راؤل لن يأتى الليلة ٠

ـ سوف يأتى ٠ اذا قال أنه قادم ، فسيأتى ٠

وتوقفت برهة ثم أضافت مستفسرة :

ـ هل هم ٠٠ قالوا أى شىء تحت ؟

ـ لا شىء ٠ انهم تساءلوا عن السبب فى حضوره ، هذا كل شىء ٠٠

ـ لاداعى للسؤال ٠ شىء واحد يجعله يطأ هذا المكان ، وهو النقود ٠ فكل مرة يأتى فيها تنشأ مشكلة، لأن مستر راؤل يريد المال من أجل بلفين والسيد يريده من أجل فالى ٠

قلت :

ـ لابد أن مستر راؤل مالك حريص ٠

ـ أوه ، انه يعتنى ببلفين ويرعاها بشكل طيب ٠٠ انه مثل أبيه ، كما تعرفين ٠ ولكنهم يقولون أنه يعيش حياته بالطول وبالعرض ٠ هناك بعض الحكايات ٠

قلت :

ـ لا يمكنك أن تصدقى كل شىء تسمعينه ٠

فقالت مسز سيدون بأسف :

ـ لا ، طبعا ٠ ٠هذا صحيح ٠ وخصوصا عندما يكون عن مستر راؤل ،٠لأنه رجل من النوع الذى يجعل الناس تتكلم عنه ٠ ولكن من أين يحصل على المال ؟ من أين حصل على تلك السيارة الكبيرة العظيمة التى كان يقودها المرة الماضية عندما كان هنا ؟

فقلت بهدوء :

ـ حسن ، من أين ؟

ـ آه ، لك أن تسألى من أين ٠٠ لقد سمعت السيد يسأله عن ذلك ، ولم يخبره مستر راؤل ٠ قال فقط شيئا عن ليلة محظوظة ورقم محظوظ ٠

فضحكت قائلة :

– انها توحى كما لو انه كسبها فى الكازينو ٠

فبدت كأنها صدمت بعض الشيء ، وقالت :

– حسن يا آنسة ! أنا لا ادرى ماذا كانت الآنسة ديبى قد تقول ! فغالبا ما اتساءل ٠٠

فقلت بسرعة :

– آه ، انه موعد شراب الشيكولاته لفيليب ٠

فلقد سمعت قصص مافيه الكفاية عن الآنسة ديبى ٠٠ وتبعتنى مسز سيدون الى المطبخ الصغير ، وهى تقول :

– هل تذكرت بيرث الحليب ؟ آه ، نعم ٠٠ هاهو قولى لى يا آنسة ، هل تجدين أن بيرث تقوم بعملها جيدا ؟

– أوه نعم ، انها تحافظ على نظافة الحجرات ٠

فمرت مسز سيدون باصبعها فوق الرف التى يحمل علب الكاكاو والقهوة والشاى والسكر ، وبدا عليها الرضا ٠

ـ نعم ، ان بيرث فتاة طيبة ، لو أنها حافظت على عقلها فى عملها ، بدلا من الركض وراء برنارد هذا ٠٠ السكر هنا ، يا آنسة !

ـ لا ، ليس هذا ٠ أنا أستخدم السكر الخاص بفيليب ، كما تذكرين ٠٠ هذه هى علبته الخاصـــة ، العلبة الزرقاء ٠ هل تقصـــدين أن هناك شيئا مابين بيرث وبرنارد ؟ آمل الا يكون هذا بشكل جدى ٠٠ انه أكبر فى السن ٠٠ انه يكبرها بكثير ، وبجانب ٠٠

ـ نعم يا آنسة ، شىء مؤسف حقا ٠ هذا الوجه الأغبر لشخص غبى وفتاة صغيرة جميلة مثل بيرث ! ولكن هذه هى الدنيا ، وهذه هى طبيعة البشر ! والآن لابد لى أن أذهب ٠ حقا لقد استمتعت بحديثنا يا آنسة ٠٠ كلانا سيدون وأنا نعتقد أن فيليب أفضل بكثير بسبب وجودك هنا ٠ انه يحبك ، هذا واضح للعيان ٠ أن ما يحتاج اليه هو انسان ما يغرم به ويحبه ٠

فقلت بهدوء وكأنى أحدث نفسى :

ـ ألسنا كلنا نحبه ؟

ـ كانت مربيته سـيدة لطيفة جدا ، ولكنها كانت

تعامله على أنه طفل صغير · انك تقومين بمهمة عظيمة معه ، يا آنسة ·

– أشكرك يامسز سيدون ·

وأضفت :

– على الأقل فيليب سيفرح عند قدوم مسيو راؤل ·

فحملقت فى وقالت :

– انه لا يكاديعرفه ، يا آنسة !

– ولكن عندما سمع السيارة قادمة عند المنعطفات هذا المساء بمسيو فلوريمون ، اندفع فيليب راكضـــا وخرج الى الشرفة · فهل هناك شخص آخر يتطلع الى رؤياه ؟

وامتلأت عيناها فجاة بالدموع ·

– طفل مسكين ، يتيم كسير القلب !

وبعدما مسحت عينيها قالت :

– انه لم ير موت والديه مطلقا ، بالطبع · كانا سيعودان فى سـيارتهما من المطار ، تعرفين ، وكان

ينتظرهما هنا ٠٠ ولم يأتيا أبدا ٠٠ ان اعتقادى أنه لايزال منتظرا ٠

ـ هذا فظيع ٠

وبلعت ريقى وكررت :

ـ هذا ٠٠ فظيع ٠٠

ـ نعم ، فى كل مرة تأتى سيارة الينا فى المساء ، يندفع الى الخارج ٠ ومن الخطر أنه لا توجد سيارات كثيرة ! ودائما أخشى عليه أن يميل بجسمه أكثر من اللازم ، وينتهى به الحال فوق تلك القضبان الحديدية المدببة السفلية ٠

فسرى فى شعور بارد ، وقلت :

ـ سوف أراقبه !

الفصـــل السابع

كان فيليب مستغرقا فى النوم ، ويبدو صغيرا بشكل غير عادى تحت أغطية السرير ٠٠ وخرجت بهدوء ، آخذة مشروب الشيكولاته الذى لم يرغب فى تناوله الى المطبخ ٠

وعدت الى حجرتى ، وسرت مباشرة الى الشرفة ٠ كانت الليلة معتدلة الطقس ، ورطوبة الربيع معلقة فى الهواء ٠ فشعرت بالتعب وبالاحباط ٠ لقد حدثت أشياء كثيرة اليوم ، ومن أحلاها ٠٠ لقاء الصباح مع وليم بليك ، وحديثى الممتع مع فلوريمون ٠٠ لقد خبت الكلمات واختفت الذكرى من عقلى وتركتنى مع هذا الشـــعور

الضحل التافه الغريب · انى أعرف كنه ذلك بالطبع · فلقد عشت مع الوحدة لفترة طويلة ·

وسألت نفسى بحدة ، ماذا أريد ؟ هل أريد أن أكون حيث مدام دى فالى ، فى حجرة جلوس متلألئة الأضواء ، مستمتعة بالأحاديث العصـــرية المتمدينة ؟ أين كنت سأكون أنا الآن ، اذا لم يحدث الأمر الذى حدث من سبع سنوات مضت ؟

حسن ، انى أطلب المستحيل · ولابد أن أرضى بالواقع !

وســـــرت بطول الشـرفة حتى وقفت فوق الحجرة الجلوس · كان الضوء يسقط بنعومة من النوافذ الطويلة على الساحة الأمامية ، عبر الستائر الذهبية ·· وكانت احدى النوافذ قد تركت مفتوحة لليل اللطيف ، ومنها يتسلل شعاع قوى من الضوء ويصاحبه صوت الحديث والضحك ·· فاستدرت مسرعة ، وعدت الى حجرتى وارتديت معطفى ·· وخرجت للتريض ·

أخذت أهبط المنعطفات ببطء فى ضوء القمر الخافت · كان هناك طريق هابط يتخلل الغابة نفســـها ·· مدق منحدر وكان أقصر من المنعطفات ، ولكن من المتوقع أن

يكون مظلما جدا تحت الأشجار ، ولذلك التزمت بالسير فى الطريق ·

كان الهواء ساكنا تماما · ومن تحتى ، فى الوادى، كنت أستطيع رؤية الضباب الشاحب · وكانت هناك رائحة نفاذة قوية للزرع والتربة المبتلة ، رائحة الربيع !

وسمعت ضجة مفاجئة فى أوراق الشـــجر الجافة وتذكرت أن هناك خنازير برية فى بعض أجزاء فرنسا · وضحكت على سخافة تفكيرى ومشــيت بثبات هابطة الطريق · ووصلت أخيرا الى الجسر ·

يحف النهر حدود أرض فالى ، ويحفها من الجانب الآخر البعيد الطريق الرئيسى · كان الضباب كثيفا على جانب فالى من الجسر ، ولكنى نفذت منه ، ووقفت فى نهاية الجسر محملقة فى المنحدر الشديد لغابة ديودونى على الجانب الآخر من الطريق الرئيسى · وبدت الغابة ، فى ضوء القمر الخافت ، مثل سحابة مظلمة معلقة فوقى ·

وكانت هناك سيارة قادمة صاعدة الوادى ·· لا ، انها لورى ·· وسمعت صوت المحرك يعلو ويخفت مرة تلو الأخرى ، أثناء انعطاف اللورى حول المنحنيات ·· واقترب من نهاية الجسر واستمر فى صــعود الطريق الرئيسى ·

كنت أستدير عائدة لأصعد المنعطفات ، عندما شد انتباهى ضوء صغير جدا ظهر بين أشجار ديودونى ، متلألئا عبر سحب الصنوبر مثل نجمة صفراء صغيرة . فتوقفت وتطلعت نحو هذا النور .. وتصاعد زئير لورى آخر قادما من الوادى ، ومن فوقه يتعلق الضوء الصغير مشعا وثابتا . لا ، ليس بنجم .. انه كوخ الغابة الصغير الخاص بوليم بليك ، فابتسمت لنفسى ، وتصورته جالسا مع مشترواته .

وارعد اللورى الثانى مارا بنهاية الجسر . ولم ألحظ السيارة المندفعة بهدوء من خلف اللورى الكبير . ولم أرها حتى استدارت بحدة الى الجسر الضيق وجاءت نحوى مباشرة .

كانت زاوية سهلة ، قطعها مسرعا . وللحظة وقعت أسيرة فى شعاع الأضواء الأمامية ، وسمعت صـــرخة الفرامل ، فقفزت لاجئة لحافة الطريق .. وانزلقت قدمى على السطح المبتل فسقطت متمددة تحت حائط الجسر ، وذلك أثناء مرور السيارة على بعد نصف متر من وجهى .. بعد أن وقفت وقفة عنيفة خلف الجسر مباشرة .

وانفتح باب السيارة وأقفل ، وقال صوت ليون دى فالى :

– أين أنت ؟ ألم ألمسك ، أليس كذلك ؟

وعند سماعى لهذا الصوت المألوف ظننت انى قد صـدمت وأصـبت بلوثة ٠٠ وجررت نفسى ، متعلقة بالحائط ، ووقفت على قدمى وفرائصى ترتعد !

لم أجن على أية حال ٠٠ ولم يكن الرجل القادم نحوى ليون دى فالى ٠

كان راؤل دى فالى ، مثل أخيه ، حلو المحيا بشكل فوق العادة ، لكن وجهه لم يكن عليه علامات السـن والمرض ٠ كان يبدو قويا ، فخورا ، و ٠٠ فى هذه اللحظة ٠٠ حانقا جدا ٠

جلست فجأة على الحائط وانتظرت ٠ ووقف قبالتى تماما ، طويلا شامخا فى ضوء القمر ، وقال بحدة :

– هل أصبت ؟ هل صدمتك ؟

– لا !

– ولا حتى لامستك ؟

– لا ٠٠ لا !

وكانت يداى ترتعشان ٠

سمعته يتنفس فى ارتياح سريع · واشتعل صوته غضبا :

ـ اذن بحق الجحيم ماذا كنت تفعلين ، واقفة فى وسط الطريق فى الضباب ؟ كنت على وشك الموت ·· واذا حدث ، لكنت تستحقين ذلك !

لم اكن معتادة على أن يتكلم أحد معى بمثل هذه الحدة ، فرفعت رأسى بغضب قائلة :

ـ انه ليس طريقا عموميا ولدى كل حق لأقف فى وسطه ، أو أجلس أو أرقد حتى فى وسطه اذا أردت !

على أية حـــال كان لا يجب عليك أن تســير عند منحنى بمثل هذه السرعة !

ـ أنا أعرف الطريق مثل ظهر يدى ، وأنا أعرف امكانية هذه السيارة ·

وبدأ يغير من نبرته الغاضبة الى نبرة من يريد أن يتسلى :

ـ لم اتوقع أن اجد أحدا واقفا على الجسر فى هذا الوقت من الليل ! ربما ستخبرينى الآن لماذا تعتبرين لك كل الحق فى الوقوف ·· أو كما قلت حتى الرقاد ؟

.. فى وسط هذا الطريق بالذات ؟ هذه هى .. هذه هى عزبة فالى ، كما تعرفين ..

كنت منهمكة فى مســح يدى الموحلتين بمنديل ، وقلت :

ـ نعم ، انى أقطن هنا .

فأصدر صوتا يعبر عن الاندهاش :

ـ بالتأكيد أنت لست واحدة من الـ .... ؟

فقلت :

ـ الخدم ؟ تقريبا . أنا مربية فيليب !

فقال راؤل دى فالى ببطء :

ـ لكنهم قالوا لى أنها فتاة انجليزية .

شعرت كأنه قد أعطانى ضربة حادة فى المعدة .. ولأول مرة أدركت أننى قد تكلمت باللغة الفرنسية .. لقد أجبته ، بدون تفكير ، باللغة التى استخدمها . فقلت بضعف :

ـ أنا ... نسيت !

فقال باندهاش عظيم :

ـ هل أنت انجليزية ؟!

فاومات :

ـ ليندا مارتن ، من لندن · لقد صار لى هنا ثلاثة اسابيع ··

فاصبح صوته جافا قليلا وقال :

ـ أذن اسمحى لى أن أهنئك على تقدمك فى اللغة الفرنسية يا آنسة مارتن ·

لقد هزتنى فعلا هذه الصدمة الثانية · وكانت النبرة الجافة فى صوته ، تشبه تماما نبرات صوت ليون دى فالى ، لذا لم أستطع الامتناع عن اجابة حانقة فقلت :

ـ يجب أن تعرف جيدا تماما أننى لم اتعلم كل لغتى الفرنسية فى الاسابيع الثلاثة الماضية ·· لذلك لا تضايقنى كما أسقطتنى !

لم يكن هذا صحيحا بكل وضوح وتوقعت منه أن يصيح فى ، ولكنه قال فقط :

ـ أنا آسف ، لابد أنك صدمت صدمة سخيفة · سوف آخذك الى السيارة ، وسوف أوصلك الى المنزل ·

وعندما وقفت على قدمى وضع يده تحت ذراعى ، وقال بسرعة :

— انك لا تسيرين بشكل سليم ٠٠ يبدو انك أصبت !

— ليس منك ٠٠ لقد انزلقت قدمى وسقطت عندما حاولت القفز خــارج الطـــريق ٠ انها مجــــرد ركبة مخدوشة ٠ حقيقى ، هذا كل ما فى الأمر ٠

فقال وهو يبدو قلقا :

— حســن ، من الأفضــل توصــيلك للقصر ٠ هل تستطيعين الدخول فى السيارة ؟ أخشى أن يكون هذا صعبا بعض الشىء !

لقد اصطدمت سيارته الكبيرة — لكى تتفادانى — بجانب الطريق ، وكان أمامه مباشرة حائط من الصخور ٠٠ فتطلعت اليه باحساس بالذنب وقلت :

— أنا ٠٠ انها لم تصب بضرر ، أليس كذلك ؟

— لا أعتقد ذلك ٠

وفتح الباب وتمكنت من الدخول ٠ وذهب ليفحص خلفية السيارة ، وجلست مضطجعة فى المقعد المريح ، مستمتعة بالرائحة الخافتة للجلد الثمين ٠ وفكرت بأنها

كانت ستصبح غلطتى اذا صدمت سيارة مسيو راؤل ـ الكاديلاك الغالية ـ هذا الحائط الصخرى !

ودخل وجلس بجانبى ، فقلت بصوت منخفض :

ـ مسيو دى فالى ٠٠ قبل أن تعيدنى أحب أن أعتذر ٠٠

ـ تعتذرين ؟ ولماذا ؟

ـ لقد أنقذت حياتى بقيادتك الحسنة ٠٠ وبعدها كنت فظة معك ! أشعر بالأسف ٠٠ انها كانت غلطتى ! واذا كنت قد أتلفت سيارتك ، فسوف أدفع ثمن ذلك من راتبى !

فأخذ يضحك على ثانية :

ـ شكرا ٠ ولكنها لم تصب بسوء ، ولا خدش ٠ اذا كان لأحد أن يعتذر ، فهو أنا ٠ أعتقد أنى كنت جافا فى حديثى ٠٠ أنا آسف ٠

فقلت بشكل مرتبك قليلا :

ـ حصل خير !

لم يقل شيئا ٠ وبدا كما لو كان ينتظر شيئا ٠ ولم

يتحرك لتشغيل السيارة ·· ولاحظت أنه كان يراقبنى بثبات ، وزالت الفكاهة من على وجهه ،**فقلت :**

– لقد بوغت أنا نفسى بشكل جعلنى أبوح بسرى لك ·

– عندما تكلمت معى باللغة الفرنسية ؟ آه ! وهكذا كنت أنا على صواب ؟

– أنهم لا يعرفون أن نصفى فرنسى ؟ نعم ··

فقال :

– أنا لست مستخدمك ، تعرفين ، لا حاجة لك أن تشرحى لى · لكنى مجرد فضولى بعض الشىء · هل أفهم أنك خدعت أبى وهيلواز عن عمد ؟

– أنا ·· انى أخشى أنه كذلك ·

– لماذا ؟

– لأنى أردت الوظيفة ·

– ولكن لازلت لا أفهم لماذا ··

فضغطت يدى سويا وقلت بحرص :

ـ كنت فى حاجة للوظيفة . سأحاول أن أقول لك لماذا ، بالرغم من أنى لا أفترض أنك ستفهم ..

وبدا كما لو كان ينوى أن يقول شيئا ، ولكنى واصلت الحديث وقلت بسرعة :

ـ أنا جزء منى فرنسى ، ولقد نشأت فى باريس . وعندما كنت فى الثالثة عشرة من عمرى قتل أبى وأمى فى حادث طائرة .. كان أبى يكتب فيلما يجرى تصويره فى البندقية ، وذهبت أمى معه للاســـتجمام .. أوه ، التفاصيل لا تهم .. انتهى بى الحال فى ملجأ أيتام بلندن .. لا أدرى ..هل حدث ودخلت أحد الملاجىء ؟

ـ لا !

ـ حسن ، فالتفاصيل لا تهم هنا أيضا .. لقد كانوا رحماء معى جدا . لكنى أردت .. أوه ، أن أعيش ، أن أجد مكانا فى العالم يخصنى ، وكنت أبدو أنى أمام طريق مسدود .. حصلت على وظيفة فى مدرسة بنين لتدريس اللغة الفرنسية ، ولم أكن سعيدة هناك ، أيضا .. وعندما أخبرونى أن مدام دى فالى تريد مربية انجليزية ، بدا لى ذلك كهدية من السماء . وفكرت أنه سيكون شيئا رائعا أن أعيش فى فرنسا وفى بيت حقيقى ثانية ..

فقال بشكل جاف :

– وهكذا أتيت الى فالى ٠٠

– نعم ، هذا كل شىء ٠

ومرت فترة صمت قال بعدها :

– أعتقد أنى أفهم ذلك ٠ لكن لا حاجة بشرح كل هذا لى ، تعرفين ، ليس لى أى حق فى استجوابك ٠

فقلت بخجل :

– شعرت أنى مدينة لك بشىء ٠ وأنت سألتنى لماذا خدعت مدام دى فالى وأباك ٠

– لا ، انك أسأت فهمى ٠ كان المفروض أن أقول ، لماذا ستخدعينهما ٠ هل تحاولين أن تخبرينى أنك أخفيت حقيقة أنك فرنســية الى حد ما ، لأن ذلك قد يفقــدك الوظيفة ؟

– أنا ٠٠ نعم الى حد ما ٠٠

ومرت فترة صمت ، قلت بعدها :

– شعرت فعلا أنه من المهم ألا أبدو أنى أستطيع التحدث باللغة الفرنسية ، لأننى سأتحدث مع فيليب باللغة

الانجليزية كل الوقت ·· وعندما بدأت بالتظـــاهر فلم أستطع الاعتراف بعد ذلك ·

فقال :

ـ افهم أنهما مازالا لا يعرفان ·

ـ نعم ·

ـ حســـن ، لا تقلقى بخصـــوص ذلك · ان هذا الموضوع ليس له أهمية بأى شكل من الاشكال ·

وبدأ تشغيل المحرك ·

ـ وأنا لم اقصد أن أسألك أسئلة كثيرة ! ان هذا ليس من مهمتى ·

فقلت فى صوت منخفض :

ـ مسيو ·· اتساءل اذا كنت سوف ·· اقصد ··

ـ تسألين اذا كنت سأحتفظ بسرك ؟

فاضفت وأنا اشعر بشىء من الضآلة :

ـ نعم · أرجوك !

فقال راؤل دى فالى ببطء :

ـ حسن جدا · لن أقول · والآن أعتقد من الأفضل أن نذهب ·

وتحركت السيارة للأمام · وأخذ يقود فى صمت وكان لدى وقت للتفكير · لماذا كان على أن أبوح بقصتى لراؤل دى فالى ؟ ماذا تهمه ؟ وماذا سيفكر فى ؟ وجززت على شفتى · حسن ، من المحتمل أنه لم ينصت جيدا ، وكانت لديه أمور أهم يفكر فيها ، فقلت :

ـ مسيو فلوريمون هنا الليلة !

ـ أوه ؟ هل يبقى طويلا ؟

ـ أعتقد أنه جاء للعشاء ، ولكن اذا ازداد الضباب فأعتقد أنه سيقضى الليلة هنا ·

فقال راؤل :

ـ آه ، جميل · هذا أمر آخر يمكننى أن اشـــكر الضباب لأجله !

وأخذت أتساءل ماذا يقصد « بأمر آخر » ، عندما تأرجحت الكاديلاك فوق الساحة الأمامية ··

الفصـــل الثـــامن

كان سيدون يعبر البهو عندما دخلنا . فالتفت عندما رأى راول ، ثم وقعت عينه على ، فقال :

ـ مستر راول ! آنسة مارتن ! هل حدث حادث ؟

ـ كدت أصدم الآنسة مارتن فوق جسر فالمى .. اقترح أن تحضر لها بعض البراندى الآن ، و ..

فقلت بسرعة :

ـ لا ، من فضلك أنا لا أريد أى براندى . انى ذاهبة لآخذ حماما ، ثم أعمل لنفسى فنجانا من الشاى .. حقيقى أنا لا أريد شيئا .

– حسن يا آنسة ، اذا كنت متأكدة من ذلك ٠

ثم نظر الى راؤل الذى قال :

– سآخذ حاجياتك الى أعلى ياسيدى !

– شكرا لك ٠ كيف حالك ياسيدون ؟ وكيف حال مسز سيدون ؟ هل زالت أزمة الربو ؟

– نعم ، أشكرك ياســـيدى ، كلانا بخير ٠ سأخبر المدام بأنك وصلت ٠٠ !

وعند استدارتى للذهاب ، قال راؤل :

– لقد مزقت ثوبك ٠

فنظرت الى أسفل ، وكان معطفى مفتوحا ، فظهر قطع فى نهاية ثوبى ٠وقال آسفا :

– لابد أن مقدمة السيارة قد أمسكت بك ٠ أنا فى الحقيقة بالغ ٠٠

– راؤل ؟!

جاء الصوت من خلفى ٠٠ فقفزت مذعورة ٠ لابد أن راؤل قد اعتاد على طرق أبيه فى الدخول المباغت ، لأنه لم يقل أكثر من :

ـ كيف حالك ياسيدى ؟

ومد يده ٠٠

وتحولت عينا ليون دى فالمى الساطعتين نحوى **وقال متسائلا :**

ـ ما هذا ؟ هل سمعت شيئا عن سيارة أمسكت **بك ؟**
فقال راؤل ، مبتسما :

ـ آنسة مارتن وأنا ، التقينا ٠٠ بشكل **مفاجىء ٠٠** تحت ٠٠ عند جسر فالمى ٠٠

ونزلت عينـا أبيه الى ثوبى الممزق والى سـاقى الملطخة بالدم والوحل ٠

ـ هل تعنى أنك صدمتها ؟

فقلت بسرعة :

ـ أوه لا ٠ لقد سقطت وجرحت ركبتى ، **هذا كل ما فى الأمر ٠٠ ومسيو راؤل لم يمسنى ٠**

ـ هذا الجرح لم يكن سببه السقوط ٠ فهذا الثوب قد مزقه شىء حاد هل هذا هو فعل سيارتك العظيمة ياراؤل ؟

وظهر فى صوته حنق حاد مفاجىء · وتذكرت للحظة الطريقة التى تحدث بها لفيليب ، بجانب الكرسى الأصفر

ولكن هذا لم يكن فيليب ، انه راؤل · فقال بهدوء :

ــ أتخيل ذلك · آنسة مارتن ، أنا فى الحقيقة بالغ الأسف ··

ــ أوه من فضلك ، هذا لا شىء بالمرة · انها غلطتى أنا !

فقال مسيو دى فالى :

ــ ماذا كنت تفعلين تحت عند الجسر فى هذا الوقت من الليل ؟

ــ ذهبت للتريض · وتوقفت فى منتصف الجسر · كان شيئا سخيفا أن أفعل ذلك بسبب كثافة الضباب ، ومسيو راؤل كان يقود سيارته فيه · ولقد نسيت أنه قادم ·

ــ نســـيت ؟

وفجأة تذكرت أن المحادثة عن راؤل كانت باللغة الفرنسية ·

فقلت فى ثبات :

ـ مسز سيدون أخبرتنى أنه قادم ٠

ـ آه ، نعم ٠

كانت العينان الداكنتان لا تفصحان بما فيهما من معان :

ـ ثم ماذا ؟

ـ وهكذا بالطبع لم يرنى مستر راؤل حتى صار بجانبى تقريبا ٠ أنا لا أدرى كيف أستطاع أن يتفادانى !

وكان صوته حادا من الحنق ثانية حين قال :

ـ انها زاوية خطيرة جدا ، راؤل ، لابد أنك كنت تقود السيارة باهمال مذهل !

لم يكن له الحق للتحدث الى ابنه بهذا الشـــكل ، وأمامى ، أيضا ! وفتحت فمى لأتكلم ٠

ولكن راؤل كان يبتسم فى سرور حين قال :

ـ تم توســـيع الطريق عند تلك الزاوية الخريف الماضى ٠٠ من مـــال بلفين ٠ تذكر ان تلك الطـــرق

والسيارات قد تغيرت كثيرا جدا منذ كنت قادرا على القيادة ٠

وفى الصمت الوجيز الذى تبع ذلك رأيت التجاعيد حول فم دى فالى تزداد عمقا ٠٠ واليدين البيضاوين تنقبضان باحكام حول ذراعى الكرسى ٠ ولم يقل شيئا ٠ وابتسم راؤل بتكاسل وهو ينظر له من أعلى الى أسفل ٠٠ لا ، هذا ليس فيليب حتى يكلمه بشدة ٠

وذهبت مسرعة الى الطابق العلوى ٠

وفى اليوم التالى انقشع الضباب وولت آثاره ، وكانت الأشجار تتحرك بخفة فى ريح الربيع الصافية ٠٠ فى ذلك اليوم بدأنا جولتنا المدببة ، عبر الغابات التى تمتد فى اتجاه الشمال الى أسفل الوادى ٠ وهبطنا الممر المنحدر الى الجسر ٠

كان يوما ساطعا وباردا فى الوقت نفســـه ، وكان فيليب يرتدى قلنسوته الصوفية الحمراء ، وبدا مبتهجا بشكل غير عادى ٠

وبينما كنا نتجه الى الممر المنبســـط الواسع الذى يؤدى الى الطريق الملاصق لجانب التل ، قلت له :

ـ دعنا ننزل الى الغابة الكبيرة ثانية !

كانت الأشجار هنا عتيقة ومتباعدة ، فقال فيليب وهو يقفز ويرقص بجانبي :

ـ دعينا نبحث عن الدببة !

ـ دببة ؟ هل توجد هنا دببة ؟ · لا ، لا توجد دببة فى فرنسا الآن ! خنازير برية ربما ··

ـ حســـن ، برنارد يقول بأن هناك دببة فى هذه الغابات · أخبرنى أنه أصاب واحدة بالرصاص ! هل تعتقدين يامدموازيل ، أننى عندما أصبح فى العاشرة من عمرى أستطيع أن أحصل على بندقية ؟

ـ عندما تكبر ، ممكن !

ـ هل عندما يصبح عمرى عشرة سنوات أصبح كبيرا ؟!

ـ ممكن ، لكن جسمك ليس كبيرا جدا · ليس كبيرا بما فيه الكفاية لاطلاق الرصاص على الدببة ·

ـ ارانب اذن · سأحصل على بندقية وأطلقها على الأرانب !

وأخذ يرقص امامى ويغنى اغنية صغيرة :

« أطلق الرصاص على الأرنب ،

أطلق الرصاص على الدب ،

بانج ، بانج ، بانج !

هيلا ، هيلا ، هوب · »

فقلت :

– انتبه الى أين أنت ذاهب ! والا سوف ···

عندئذ حدثت ثلاثة أمور ، تقريبا فى نفس اللحظة ·

فيليب التوت قدمه فى جذر شجرة وسقط متمددا على الأرض ·· شىء ما ضرب الشجرة بجانبه وأصدر صوتا عاليا وطلقة بندقية حادة مزقت السكون فى الغابات ·

فى البداية لم أستوعب ما قد حدث · طرقعة البندقية، وجسد الصبى ممددا على أرض الممر ·· وللحظة شعرت كأنى أصبت بسكتة قلبية ، وتحرك الرعب فى دمى كالألم · وعندما تحرك ، أدركت أن جـزع الشـــجرة هو الذى أصيب ·

وصرخت فى الغابات الساكنة التى ترتفع متدرجة من فوقنا :

– لا تطلق الرصاص يا أحمق ! **يوجد أناس هنا !**

ثم وقفت بجانب فيليب وانحنيت فوقه ، لأتأكد من ان الرصاصة لم تلمسه ، ولكنى عندما رأيت الثقب فى الشجرة من فوقه تماما ، أدركت كم كان قريبا ليكون هو المقصود · والأغنية السخيفة الصغيرة التى جعلته يسقط قد أنقذت حياته ··

ورفع رأسه ، وذهب كل المرح والبهجة من وجهة الملطخ بالوحل على أحد جانبيه ، وقال :

ـ انها كانت بندقية ! شىء ما ضرب الشجرة ! رصاصة !

كان يتكلم بالطبع ، باللغة الفرنسية ، وأجبته بنفس اللغة على أية حال فقد سمعنى لتوه وأنا أصيح باللغة الفرنسية على صاحب البندقية ·

ـ شخص أحمق سخيف خرج ببندقيته وراء خنزير برى · حصل خير يا فيليب ، حصل خير !

وأخذت بيده حتى وقف على قدميه ، وقلت :

ـ أظن أنه اعتقد أنك خنزير ··

كان فيليب يرتعد من الغضب ومن الخوف فى نفس الوقت · وقال :

– الخنازير لا تغنى ! انه أحمق أوه جنون ! سوف أفصله من عمله !

وكنت منتظرة قدوم صياد خائف ليرى ما قد فعله ويعتذر · ولكن مع مرور الوقت ، أدركت أن الغابة تبدو خاوية · وأيا كان من أطلق العيار النارى ، فلن يعترف باهماله ··

وتطلعت من حولى ، كانت على يسارنا مســـاحة فضاء مكشـــوفة ، ترتفع الأرض فيها بلطف الى أعلى لحوالى مائة ياردة · وتوجد عند القمة صخور وأشجار كثيفة · ربما الرصاصة قد أطلقت من هناك ، فقلت :

– انتظر هنا ، سأذهب لأرى ··

– لا !

وأمسك بيدى وقبض عليها باحكام · وأرخيت بصرى الى أسفل على الوجه الشاحب الصغير تحت القلنسوة الحمراء ·· كانت الدموع تترقرق فى عينيه ، فقلت :

– حسنا ، سنذهب الى البيت !

وعندما صعدنا الممر رأينا مدام دى فالمى فى الحديقة الأمامية ·· كانت تقطف الزهور · وكان وجههـــا فى

اتجاهنا ، فرأتنا عندما خرجنا من الغابات ·· لابد أنها رأت الوحل على ملابس فيليب حيث ظهرت نظرة رعب في وجهها ·

ــ فيليب ! ماذا حدث بحق السماء ؟!

كنت مقطوعة النفس من التسلق ومازلت حانقة ، فقلت :

ــ شخص ما أطلق النار على فيليب في الغابة تحت هناك ·· !

كانت شاحبة جدا وهي تقول :

ــ أطلق النار ·· على فيليب ؟!

ــ نعم ·· لقد اخطأه فقط لأنه سقط · والرصاصة ضربت الشجرة !

ــ ولكن ·· هذا جنون ! هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ·· هل رأيت من هو ؟

ــ لا ، لم أر أحدا · ولكنى أتصور أن مسيو دى فالى يستطيع اكتشاف من الذى كان في الغابات في هذا الوقت · أين مسيو دى فالى يامدام ؟

– فى المكتبة ٠

كانت تضـــع احدى يديها على قلبها ، ومن يدها الأخرى وقعت الزهور التى كانت قد جمعتها على الأرض، دون أن تلاحظ ٠ **وقلت :**

– اذن ســـأذهب وأراه بعـــدما آخذ فيليب الى الداخل ٠

– نعم ، نعم ، بالطبع ٠ مسيو دى فالمى سيتضايق بشكل مزعج ٠٠ بشكل مزعج !

فقلت :

– آمل أن يفعل شيئا أكثر من ذلك !

وعندما دخلنا التفت خلفى فرأيتها تركض مسرعة ، لتخبر مسيو دى فالمى بنفسها ٠٠ حسنا ، فكلما عرف مبكرا كان أفضل ٠

أخذت فيليب وصعدت به الى بر الأمان فى حجرة الدراسة ٠ وبقيت معه الى أن أخذ حمامه ، وبعد ذلك تركت بيرث معه ونزلت لأرى عمه ٠٠

الفصـــل التاســـع

كان ليون دى فالى بمفرده فى المكتبة . لم أكن قد دخلت هذه الحجـــرة من قبل . كانت حجـــرة عالية الجدران ، وأرفف الكتب ترتفع من الأرض الى السقف . وفوق المدفأة تتعلق صورة ضخمة مرسومة بألوان الزيت لشاب يافع يقف بجانب حصان . ويبدو أنها صورة لراؤل دى فالى عندما كان صغيرا وتعجبت لماذا يحتفظ بها أبوه هنا .

وبجوار المدفأة ، كان هناك كرسى بمساند وحيد .. وغير المكتب الكبير المجاور للنافذة ، لا تحتوى الحجرة على كثير من الأثاث . وأدركت السبب عندما تحرك

كرسى ليون دى فالى عبر الحجرة الى هذه المســاحة الخاوية • فالكرسى المتحرك يحتاج الى وفرة فى المساحة• وبعد لحظة قال :

ــ تعالى واجلسى يا آنسة مارتن !

فأطعته ، وتطلعت اليه فأدركت ، مع احســاسى بالصدمة ، أن الصورة التى فوق المدفأة ليست لابنه بل لليون نفسه !

ولاحظنى عندما كنت أتأمل فى الصورة • فقال :

ــ يبدو أننا عائلة تعسة ، نحن عائلة فالى !

فقلت :

ــ هل أخبرتك المدام ؟

ــ لقد جاءت مباشرة الى •• لقد صدمت وتكدرت للغاية • ومع الأسف ، فقلبها ليس قويا ••

ونظر الى وجهى وقال :

ــ أنت أيضا ، يا آنسة مارتن • أعتقد أن من الأفضل لك أن تشربى شيئا • بعض النبيذ ؟ •• والآن ، اخبرينى ما الذى حدث من فضلك ••

أخذت الكوب بامتنان وقلت :

ـ شكرا ٠

وأعطيته موجزا قصيرا لما حدث ، فقال عندئذ :

ـ سنستطيع أن نكتشف من خرج ببندقية اليوم ، أليس كذلك ؟ يجب الا يسمح له بفعل ذلك مرة أخرى ٠٠

ـ انني أفعل ما في وسعي ٠

ورمقني بنظرة خاطفة وقال :

ـ عملي الفعلي أقوم به أساسا عن طريق التليفون ٠٠ وعندما أكتشفه ، سوف يفصل من عمله ٠٠

فقلت :

ـ هل خرج أحد ليبحث الأمر بنفسه ؟

ـ طبعا ٠ لكن الذي أطلق النار سوف يحتاط ويخفي آثاره ٠ وليس من السهل الحصول على وظائف جيدة في هذه المنطقة !

ـ استطيع أن افهم لماذا هو خائف ٠ فالموضوع قد يصل الى الشرطة ٠

فارتفع الحاجبان الأسودان ، وقال :

– الشرطة ؟ اذا كان الحادث قد وقع بالفعل ، أجل . ولكن طالما أنه ..

– لا أعتقد أنه حادث غير متعمد !

فبدت عليه الدهشة ، وقال :

– الى ماذا تلمحين بحق السماء ؟

فلم أجب .. وتساءل مرة أخرى :

– ماذا أيضا ، يا آنسة مارتن ، ماذا أيضا ؟ جريمة قتل ؟

كانت هناك نبرات احتقار وعدم تصديق في صوته .. وشيء آخر : حنق ! .. واستطعت أن أشعر بالغضب يفيض تجاهي ، مثل ريح ساخن .

ثم تلاشى ، وقال بصوت ناعم وبارد :

– انك متهيجة وثائرة بعض الشيء ، أليس كذلك ؟ من يريد أن يقتل طفلا ؟ وليس لفيليب أعداء .

فقلت في نفسي ، لا .. ولا أصدقاء أيضا ، فيما عداي ! .. وقلت ببرود :

– لا ، انني لم أقصد ذلك . ولكنني لا أستطيع أن

افهم كيف تكون حادثة غير مقصودة بالمرة · فالمكان كان مكشوفا ولابد انه كان يســـمعنا · وربما كانوا بعض الفتيان يحاولون اخافتنا ·

وسكت لبرهة ، ثم قال :

ــ أين كنت بالضبط ؟

فشرحت ببعض التفاصيل ، ثم أنهيت الشرح بقولي :

ــ أعتقد أن الرصاصة كانت قادمة من الربوة التى فوقنا · كنت أود أن أصعد لأرى ، ولكنى فضلت أن أحضر فيليب الى البيت مباشرة ·

كان يراقبنى بشىء من الفضول · وتساءل :

ــ هل كنت ستفعلين ذلك ؟

ــ طبعا !

فقال ببطء :

ــ انك فتاة شجاعة !

ــ أين الشجاعة ؟ ولماذا أخاف من أحمق ؟

فسطع وجهه بتلك الابتسامة الساحرة غير العادية ، وقال :

– ان أية فتاة صغيرة قد تخاف الاقتراب من أحمق مسلح ببندقية ! أعتقد انى أستطيع الآن أن أخمن ماحدث ٠٠ شخص ما كان ممسكان ببندقية بلا مبالاة ، وانطلق عيار نارى منها عفويا ٠٠ ورأى فيليب يسقط ، ففكر أنه قد أصابه وهكذا ولى هاربا !

– نعم ، بالطبع ٠ هذا هو الموضوع كما يبدو ٠

فقال بعطف :

– يا طفلتى المسكينة ، لقد مر بك يومان سيئان ، أليس كذلك ؟ لكن لا تهتمى اطلاقا بهذا الأمر ٠٠ هل تغلب فيليب على خوفه ؟ ألا يحتاج لطبيب ؟

– أوه لا ، أنه على مايرام حاليا ٠ لكنى وعدته أن العب معه احدى الألعاب قبل الذهاب للنوم ٠

ووضعت كوبى الفارغ جانبا ، وقلت بحرص :

– مسيو دى فالى ٠ لدى اعتراف اقوله لك ٠٠ أنا ٠٠ لقد خدعتك أنت والمدام ، ولم أعد احتمل ذلك ٠ لابد أن أخبرك ٠٠

فقال باستخفاف يبدو فى عينيه :

ـ انى منصت ٠٠ كيف خدعتينا ؟

فقلت باللغة الفرنسية :

ـ هكذا خدعتكما يامسيو ، وأعتقد أنه حان الوقت لأعترف بذلك ٠

ومرت برهة سكون قصيرة ، قال بعدها :

ـ فهمت ، انها ليست لغة فرنسية جيدة فقط ، بل لغة فرنسا بذاتها ٠ حسنا يا آنسة مارتن ، اخبرينى بكل شىء !

وانتهى الأمر ٠٠ اعترفت بتظاهرى عديم الفائدة ، ولم يحدث أى شىء سوى أن ليون دى فالمى قد ضحك كثيرا ٠ وضحكت معه وأنا أشعر بالامتنان والراحة ٠

وبعد لحظات قليلة فتح الباب ودخل راؤل وقال :

ـ أعتقد أنك أردت مقابلتى ياسيدى ؟ لقد وصلت لتوى ٠

وعندما رآنى ، توقف عن الكلام مع أبيه وقال لى :
ـ مساء الخير يامدموازيل !

فنهضت واقفة بسرعة ، وقلت باللغة الفرنسية :

ـ كنت على وشك الانصراف ٠

فرأيت حاجبى راؤل يرتفعان ، فصـــمت برهة ثم قلت :

ـ ربما مسيو راؤل قد اكتشف شيئا ما عن اطلاق النار ؟ هل كان يبحث عن هذا الرجل ؟

فقال مسيوى دى فالى :

ـ لا ، حسنا يا آنسة مارتن ، شكرا على مجيئك ٠ تصبحى على خير ٠

فقال راؤل بانفعال :

ـ اطلاق النار ؟!

كان يوجه الحديث لى ، فترددت قائلة :

ـ اذن ٠٠ اذن أنت لا تعرف ماحدث اليوم ؟

ـ لا ٠٠ ما الذى حدث ؟!

فقال ليون ببرود :

ـ أحد الحمقى قد أخطأ ببندقيته فى الغابات اصابة ابن عمك ٠

ـ ماذا ؟ أطلق شـــخص النار على فيليب ؟ هل أصيب ؟

ـ لم يمسس بسوء ٠٠ لقد كنت فى الخارج ٠ هل شاهدت أى أحد ؟ أى طريق سلكت ؟

ـ الشرق ، حتى جانب التل ٠ لم أر أى أحد ٠

والتفت نحوى :

ـ هل تسمحى أن تخبرينى ماحدث بالضبط ؟!

فقصصت القصة مرةأخرى ، واستمع بدون حركة ، وعندما انتهيت قال لوالده :

ـ أعتقد أنك ستعالج هذا الأمر ؟

ـ نعم ٠٠ نعم !

وأثناء حديثه مع راؤل عما قد فعله ، أخذت أراقب كلا منهما متعجبة من علاقتهما الغريبة ، وارتفعت عيناى للوجه الصغير فوق المدفأة بابتسامته اللامبالية ٠ لا ، أنه ليس راؤل ، ولا يمكن أن يكون هذا هو راؤل ٠ فهناك شىء فى وجهه ، شىء قاتم وصعب لا يمت للولد الضاحك

فى الصورة بصلة · وكان لدى شعور بأن هذا الشاب أسلس وأسهل فى التعرف عليه ··

كان ليون دى فالى يتحدث :

ـ أعتقد أن من الضرورى أن تأخذ الآنسة مارتن اجازة هذا المساء ·· لماذا لا تنزلين الى ثونون يا آنسة مارتن ، بعد ما تضعين فيليب فى سريره ؟

فقال راؤل :

ـ ولكن لن يكون هناك اتوبيس الى ثونون فى ذلك الوقت · يمكنك أن تأخذى سيارتى · هل تعرفين القيادة ؟

ـ لا ، ولكن لا يجب أن تفكر فى هذا الأمر . فأنا لا أحلم ··

ـ هل يمكنك الاستغناء عن برنارد ليقودها يا أبى ؟

ـ طبعا ، أرسلته ليبحث عن ذلك الأحمق الذى أطلق النار ، ولكنه لابد أنه عاد · اذن ، أتمنى لك أمسية سارة يا آنسة مارتن ؟ أمسية للذكرى ؟

فقلت وأنا افكر فى وجه فيليب الملطخ بالوحل والدموع :

ــ أعتقد أنها ستكون أمسية للنسيان ٠

وضحك ليون دى فالى ٠٠٠

وعبر راؤل الحجرة وفتح الباب لى ، قائلا :

ــ عند الثامنة ، اذن ؟

ــ شكرا !

ــ سوف أعمل على أن يكون هناك ، أنا ٠٠ أرى ٠٠ أرى أننا نتكلم باللغة الفرنسية الآن ؟

وفى تمام الثامنة إخترقت أضــــواء السيارة الظلام خلف قضبان الشرفة ٠ كان فيليب قد نام لتوه وكانت بيرث جالسة مع حياكتها بجانب المدفأة فى حجرة جلوسى ٠٠ وبقلب خفيف وخطوة خفيفة ركضت هابطة السلم نحو أمسيتى للحرية غير المتوقعة ٠

كانت الكاديلاك تقف هناك ، ومحـــركها يدور ٠٠ والسائق له قامة طويلة وفى خلفيته الأضواء ، منتظرا بجانب الباب ٠ فدخلت وأغلقه ورائى ، ولف حول مقدمة السيارة وجلس امام مقوده بجوارى ٠ فقلت :

ــ انت ؟ لم يكن هذا فى الاتفاق ، اليس كذلك ؟ ألم تستطع العثور على برنارد ؟

فضحك راؤل ٠ وتحركت السيارة وغاصت بنعومة هابطة المنعطفات ٠٠ ثم قال :

– نعم ، ولكنى لم أخبره ٠ هل عندك مانع ؟

– بالطبع لا ، هذا لطف منك !

فقال بخفة :

– اذا كنت ستتبعين رغباتى فانى أحذرك ٠٠ انى أفعل ذلك دائما ٠٠ فهذه هى طريقة حياتى !

– لماذا « التحذير » ؟ هل رغباتك خطيرة ؟

– أحيانا !

وأصبح وجهه جادا بشكل فجائى ٠ وقاد السيارة لفترة فى صمت وجلست فى صمت أنا أيضا وينتابنى شيء من الخجل ، أراقب التواءات المنعطفات ٠ واجتزنا الجسر بحذر متجهين الى الطريق الرئيسى ، مع زيادة السرعة ، وقال :

– يبدو أنك اجتزت الآن حالة الخوف التى كنت فيها ٠ هل كنت خائفة ؟

– اليوم ؟ نعم ، كنت ٠ ليس خوفا من ان اقتل أو

أى شىء ، ولكنى كنت خائفة بشكل ما · أعتقد أنها كانت لحظة سماعى الطلقة وفيليب ملقى ممددا أمامى على الممر ·· تلك اللحظة بدت وكأنها ستدوم الى الأبد ·

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك كنت حانقة ·· حانقة جدا ··

واضفت محاولة أن أشرح احساسى هذا ، فقلت :

ـ انه هادىء جدا ، فيليب ·· هادىء أكثر من اللازم ·· والأولاد الذين فى سنه لا يجب أن يكونوا هكذا ·· واليوم أصبح أفضل ، أصبح يصيح بكلام فارغ ويتشاقى ويقفز هنا وهناك ، وأصبحت مسرورة بذلك · وبعد ذلك ، وفجأة ··· هذا الأمر الفظيع !

وجززت على شفتى وتطلعت بعيدا عنه خارج النافذة · فقال :

ـ سوف تشعرين بشكل مختلف تماما عندما تنتهين من العشاء ··

كنا قد وصلنا الى قرب ثونون الآن ، فقال راؤل :

– ماذا تقولين ، هل نقضى ليلة حقيقية فى الخارج ؟ ·· نذهب الى جنيف ونأكل شيئا ، ثم نرقص أو نذهب الى سينما أو شىء كهذا ؟

فقلت بسعادة مفاجئة :

– أى شىء ·· كل شىء ، أتركه لك ··

فقال راؤل :

– ممتاز !

وعندما وصلنا جنيف ·· مدينة متلألئة الأضواء منعكسة على مياه البحيرة الداكنة ·· أصبحت روحى المعنوية مرتفعة ارتفاع السماء ، ونسيت الصدمة والوحدة والاحساس بالخطر ·

لماذا اعتقدت أنه صعب أن يعرف ؟ تحدثنا كأننا قد عرفنا بعضنا طوال حياتنا ·· وسألنى عن باريس ، ووجدت نفسى ، ولأول مرة ، أتكلم بسهولة عن أمى وأبى وبيتنا هناك · حتى سنوات الملجأ أصبحت ذكرى أستطيع التحدث عنها باستمتاع ·

وتحدث راؤل بدوره عن باريس التى يعرفها هو ، مختلفة تماما عن معرفتى بها ·· وعن لندن التى بدت

مختلفة ٠٠ وبعيدة آلاف الأميال عن دار الفتيات فى شمال لندن ، وعن قصر بلفين الصغير ، الماثل فى هدوء بين حقول الكروم المتربة فى نور الشمس الحارة ٠

أى شىء ماعدا فالى ٠٠ فلا أظن أنها ذكرت مرة واحدة ٠٠ وفعلنا كل شىء ٠٠ وتناولنا عشاء مدهشا ٠٠ لم يكن المكان على أحدث طراز ، لكن الطعام كان رائعا ، وملابسى لم تكن ذات موضوع ٠ وبعد ذلك ذهبنا الى مكان آخر ورقصنا ، ثم قدنا السيارة راجعين الى ثونون مزمجرين على طول الطريق بسرعة جعلت دمى يتسابق مع الاثارة ٠٠ ومع ذلك كنت لا أشعر ، فى تلك السيارة المدهشة ، وفى تلك الليلة الجميلة بأى سرعة على الاطلاق !

اندفعت السيارة الكبيرة صاعدة التل المرتفع الى ثونون ، عبر الميدان الخالى ، وتركنا المنعطف الذى يؤدى الى سوبيرو ، فقلت :

ـ هاى ! لقد تركت المنعطف !

فنظر الى بجانب من عينيه ٠ وقال :

ـ انى أتبع احدى رغباتى الخطيرة ٠ هناك كازينو فى ايفيان ٠٠ !

تذكرت مسز سيدون وابتسمت لنفسى ، وأنا أقول له :

ـ ماهو رقمك المحظوظ ؟

ـ لا أعرف بعد · ولكنى أعرف أن هذه هى الليلة التى سأجده فيها !

وهكذا ذهبنا الى الـــكازينو ولعب وراقبته ، ثم جعلنى ألعب ، وكسبت ·· وكسبت مرات أخرى ··· ثم خرجنا وشربنا قهوة مخلوطة بالبراندى ، وضحكنا كثيرا ·· ثم ، أخيرا ، عدنا الى قواعدنا سالمين ·

كانت الثالثة صـــباحا عندما توقفنا بجوار الباب الجانبى ، وشكرته وأخذت طريقى الى حجرتى ··

لابد انى كنت أطير فى حلم ·· كان حلما مخيفا ، مدهشا ، وغبيا ·· لكنه حدث ، ولم أستطع أن أفعل شيئا حياله ··

لقد أحببت راؤل دى فالى !!

الفصـــل العــاشر

كان أمرا متوقعا ·· ولابد أن يحدث · لقد جئت مباشرة من حياة هادئة قضيتها فى ملجأ وفى مدرسة ·· فكيف لى أن أقاوم الوقوع فى حب رجل مثل راؤل دى فالمى ؟ رجل له سحره وجماله غير العادى ، وتفضل بأن جعل فتاة وحيدة تتمتع بقضاء أمسية سعيدة ·· أمسية للذكرى ··

لم يكن الأمر أكثر من ذلك ، وأدركت أنا ذلك تماما ·· وبالرغم من كمية القراءات الرومانسية ، والعديد من الأحلام الوردية ، فلايزال عندى كثير من التفكير الفرنسى العاقل ·· لقد أخذت نصيبى من أمسية جميلة ·· أما الغد فانه يوم آخر ··

وهكذا أصبحت ·· وبعد الافطار اختفت الكاديلاك أســـفل المنعطفات ، وأعتقد أن راؤل كان عائدا الى بلفين !

لم يعترف أحد باطلاق النار ، وكان هناك أمل ضئيل فى اكتشاف المزيد · وعادت الحياة الى نمطها المعهود ، فيماعدا الاهتمام بحفلة عيد الفصح القادمة والتى كانت تعقد طوال سنين عديدة فى فالمى يوم الاثنين من عيد الفصح ··

قالت بيرث :

ــ وفى الليلة التالية ، نعقد نحن حفلة رقص لجميع العاملين بالقصر ، تحت فى سوبيرو · والجميع يذهبون الى هناك !

اختلط ســـرورى بفكرة حفلة الرقص بالقلق لعدم وجود ثوب عندى لأرتديه فى حفلة الرقص هذه · أعرف كيف أحيك الملابس ، ولقد وفرت معظم راتبى ··

وفى يوم الأجازة التالى نزلت الى ثونون بالأتوبيس لأشترى قماشا لثوب يصلح للرقص ·· وأخيرا عثرت على قماش ايطالى أبيض جميل منسوج بخيوط رفيعة

من الفضة ٠ كان مرتفع الثمن جدا ، وترددت لعدة دقائق ، ولكنى اشتريته ٠٠

كانت الساعة الخامسة تقريبا فى يوم عاصف من شهر ابريل ، مع رذاذ مطر معلق فى الهواء ٠ وقررت أن احتسى فنجـــانا من القهوة ، فأخذت طريقى عبر الميدان الى مطعم حيث موائده المرصوصة فى الخارج تحتمى بزجاج واق ٠٠ وأخذت أبحث عن مائدة ، عندما سمعت صوتا من خلفى ينادينى :

ـ آنسة مارتن ؟

والتفت مندهشة لأن الصوت هذا كان انجليزيا ٠٠ انه الشاب الأشقر الذى التقيت به عند الصيدلى ٠ لقد نسيت كم كان شابا ضخما عملاقا ٠ جعلنى أفكر الآن فى دب ضخم خجول ٠٠ وقال :

ـ هل تذكرينى ؟ لقد التقينا فى سوبيرو !

ـ طبعا أذكرك يامستر بليك ٠٠ آمل الا تكون قد استخدمت أيا من تلك الضمادات والاسعافات الأولية ؟ فابتسم وقال :

ـ ليس بعد ٠٠ هل كنت ٠٠ هل كنت ستجلسين ؟ هل أطلب لك بعض القهوة ؟

شـــكرته ، وجلســنا بجانب الزجاج ٠٠ واثناء احتسائنا القهوة ، سألنى عن أخبار فالى ٠ ٠فأخبرته عن بعض تفاصيل ما قد حدث فى يوم الثلاثاء بعد الظهر ٠٠ فانصت بانتباه عظيم وبنظرة مصدومة تبدو فى عينيه وسأل :

– ماذا فعل دى فالى حيال ذلك ؟

– أوه ، انه لايزال يتقصى ٠

– والابن كان هنا ، أليس كذلك ؟

فشعرت بالدم يرتفع الى خدى ، وقلت :

– كان ٠٠ لكن لا يمكنك بالتأكيد ٠٠ لا يمكن أن يكون هو !

– لا ؟ شخص آخر كان معه فى ذلك اليوم ؟

فقلت بسرعة :

– انه ٠٠ انه لا يمكن ! وكيف حـال اشـــجار الصنوبر ؟

وأخذ وليم ، فى الحال ، يتكلم بسعادة عن عمله ، حتى لاحظ فجأة مرور الوقت ٠٠ كان ينوى زيارة بعض

الأصدقاء فى ايفيان · وكان عليه أن يلحق بالأتوبيس · وبعدها بلحظة دفع الحساب واندفع مسرعا ·

كنت على وشك عبور الطريق عندما وقفت سيارة كبيرة بجانبى ·· كاديلاك ·· وبدأ قلبى يدق بسرعة ، ثم سمعت صوت راؤل وهو يسألنى :

– أذاهبة فى طريقى ؟

كان بمفرده فى السيارة ، فركبت بجانبه بلا كلمة ، وتحركت السيارة عبر الشوارع المضيئة بأنوار ساطعة ·· وعندما بدأنا نصعد نحو التلال ، أظلمت الدنيا من حولنا ·· كان يقود مسرعا جدا ، ولم يتكلم ·· وقلت اخيرا :

– رجعت بسرعة · لم تذهب الى بلفين ، اذن ؟

– لا ، كان لدى اشغال فى باريس ·

فاسندت ظهرى الى الخلف فى صمت · انه يقود دائما بسرعة ، لكن هذا المساء كان يكاد يصـــل الى حافة الخطر · يبدو أن أمرا ما قد أساءه وعكر مزاجه · وسألنى :

– من كان ذلك الشخص ؟

جاء السؤال فجأة كاسرا سكون الصمت حتى أننى قفزت ، وقلت بغباء :

ـ أى شخص ؟

ـ الرجل الذى كنت معه فى المطعم ··

فتذكرت وليم وقلت :

ـ أوه ، هو · انه صديق لى !

ـ كنت أظن أنك لا تعرفين أحدا هنا ·

فقلت بطريقة طفولية :

ـ حسن ، أنا أعرفه ·

كان على أن أجاهد لاحافظ على ثبات صوتى ·· كان التغير فيه منذ الليلة الماضية عظيما ·· شتان بين الرجلين ، لكن تظل الحقيقة واضحة :

انى أصبحت أحبه ·· لم يكن من تاثير النبيذ أو أنوار النجوم والخلفية الرومانتيكية ·· ولا حتى من السحر الذى فاض منه ·· والآن المطر ينهمر فذاب السحر وتلاشى ·· ومازلت مع ذلك واقعة فى حب هذا الغريب ذى الصوت البارد ··

ـ من هو ؟ انجليزى ؟ هل كنت تعرفينه فى انجلترا؟ هل هو يعيش هنا منذ فترة طويلة ؟

فقلت :

ـ لحظة من فضلك ٠٠ هل هذا يهم فى شىء ؟ لماذا تسأل كل هذه الأسئلة ؟

ومرت برهة صمت ، ثم قال بجمود :

ـ أنا آسف ٠ أنا لم أقصـــد أن أتقصى شئونك الخاصة !

ـ انها ليست خاصة ٠ ٠مجرد أننى لا أريد أن أخبرك ٠٠

عندئذ لم يكن هناك أى شك بخصوص غضبه ، فقاد السيارة مارا بجسر فالى وصـــاعدا المنعطفات بسرعة مضاعفة عما يجب أن يفعل ٠ فقلت :

ـ أنا أسفة ٠ أعتقد أننى متعبة ٠ لقد مشيت فى ثونون حوالى ساعتين ، باحثة عن قماش لثوب لى ٠٠ أوه ! لابد أنى تركته فى المطعم ! لقد وضعته تحت المائدة، ثم انسانى وليم ٠٠ أوه !

وهنا أطلق نفير السيارة بحدة ، فقلت :

ـ ما هذا ؟

ـ حيوان على الطريق . لم أستطع أن أرى ما هو !

ـ هل لابد أن تقود بهذه السرعة ؟ انها تخيفنى !

فانخفضت سرعة السيارة ..

ـ هل أخبرته عن اطـــلاق النار ؟ هذا .. وليم هذا ؟

فقلت بوضوح :

ـ نعم ، قلت له .. ولم أعرف أنه من المفروض على أن أقدم لمستخدمى تقرير عن كل شىء قلته وفعلته فى يوم أجازتى !

فقال من بين أسنانه :

ـ أنا لست مستخدمك !

ـ اذن لماذا تريد أن تعرف ماذا أفعل .. أو من اقابل ..

كنا عند آخر صعود للمنعطفات .. ووقفت الكاديلاك

وقفة مفاجئة وتعطل محركها وتأرجح راؤل دى فالى ومال نحوى ، وقال بعنف فجائى :

ـ لماذا ؟ لأنى أريدك لى وحدى ، أيتها الحمقاء الصغيرة ! ألا تستطيعين ملاحظة ذلك ؟!

وبعدها أعاد تشـــغيل الســيارة مرة ثانية وانطلق صاعدا الى الساحة الخارجية بدون كلمة أخرى ٠

وقفزت خارجة ٠٠ وصعدت راكضة السلالم الى الباب الأمامى ٠٠ ولحقنى ، وفتحه لى ، قائلا شيئا ما بصوت منخفض مع ضحكة صغيرة ٠ لم أنظر اليه ، وسرت أمامه مباشرة نحو ليون دى فالى ، الذى كان يعبر البهو ٠٠ فأوقف كرسيه ، والتفت برأسه ليحييني ٠٠ ثم ذهبت عيناه من وجهى الى وجه راؤل ، ثم عادت ثانية ، وارتفع حاجباه قليلا ٠٠ واستدرت وركضت صاعدة للطابق العلوى ٠٠ !

الفصل الحادى عشر

استندت على باب حجرة نومى ، وأنا أحس بأن وجهى ساخن من شـــدة احساسى بالخجل ٠ تبا له راؤل ! ٠٠ انه يسخر منى ، ويلعب بى ، لأكون مجرد فتاة أخرى فى قائمة انتصاراته العاطفية ٠٠ كيف له أن يجرؤ ويعاملنى بهذا الشكل ؟ ٠٠ تبا لليون أيضا ٠٠ تبا لجميع أفراد عائلة دى فالمى ٠٠ أنى أكرههم ٠٠ أنا لا أريد أن أرى أحدا منهم مرة ثانية !

ومع هذا التفكير ، توقفت عن خلع معطفى ٠٠٠ من السهل على ليون دى فالمى أن يخمن ما قد حدث ، ومن المحتمل أن يستغنى عنى !

وأثناء تعليقى لمعطفى على الشـــماعة شـــعرت بالبؤس تماما لفكرة أنى لن أرى أيا من أفراد دى فالمى الكريهين مرة أخرى ٠

ومشيت عبر حجرة الجلوس الخاصة بى الى حجرة الدراسة ٠٠ كان الضوء ساطعا ، ولكن لم يكن أحد هناك ٠ وكانت احدى النوافذ مفتوحة ، والستارة تتحرك قليلا بسبب الريح ٠

شعرت بالحيرة وتطلعت الى الساعة ٠ لابد أن فيليب قد عاد بالتأكيد من زيارته لمدام دى فالمى ؟ ٠٠ وذهبت لأضع كتلة حطب فى المدفأة عندما سمعت الصوت ٠٠ كان صوتا خافتا جدا ٠٠ لكنه جعل أطرافى تتجمد من الرعب ٠ كان الصوت وكأنه يقول ٠ « مدموازيل ! »

جاء الصوت عبر النافذة المفتوحة ، فاندفعت عبر الحجرة ، وخرجت الى الشرفة المظلمة ٠ وناديت :

ـ فيليب ؟!

كانت أطراف الشرفة غارقة فى ظلام دامس ، بينما كانت أرضية الشرفة زلجة بسبب المطر ٠وناديت مرة أخرى :

ـ فيليب ؟ فيليب ؟

فجاءتنى همسة صغيرة مفزعة من الزاوية الحالكة الظلمة ·· كان راقدا على كومة صغيرة مقابل جانب الشرفة ، أو بالأحرى ، حيث كان الجانب موجودا ، فالافريز لم يعد موجودا ، وكان سلم العمال الخشبى موجودا هناك بدلا منه ، هذا السلم الذى وضعته بنفسى ذلك الصباح ، عندما لاحظت أن الحجر غير ثابت ·· وكان تحت ذلك فراغ من العتمة ومسقط مسافته عشرة أمتار الى الساحة الخارجية ، وذلك الصف المرعب من القضبان الحديدية المدببة ·· !

– أوه ، فيليب ياصغيرى ، هل أنت على مايرام ؟

والتقطته بين ذراعى ، وكان خفيفا جدا ، كان يبدو وكأنه مجرد حزمة من عظام طائر صغير ، وحملته الى داخل الحجرة وأجلسته بجوار المدفأة · وسألته :

– والآن ، اخبرنى بما حدث ياحبيبى ·· هل سمعت السيارة وركضت خارجا الى الشرفة ؟

فأومأ برأسه · فقلت له :

– ولكنى حذرتك بأن الحجر سائب ·· ويمكن أن يقع !

– سمعت النفير ، فتذكرت ·· كان أبى يستخدم دائما النفير عند عودته من بعيد ، ليخبرنى أنه قادم ·· !

بالطبع ، كان راؤل هو الذى أطلق النفير ·· انه لم ير شيئا فى الطريق ، هل كان هناك حيوان بالفعل ؟

ـ ضربت الحجر ، فلم يعد له وجود ·· لقد سقط محدثا صوتا عاليا ، وصدمت فى شىء ثم سقطت ·

ـ لقد صدمت فى السلم الخشبى ·· حمدا لله أننى وضعته هناك : أوه ، انك مبتل وتشعر بالبرد ·

وأخذت افرك يديه الصغيرتين · وقال :

ـ لم أجرؤ أن أتحرك · كنت أعرف أنك سوف تعودين ·· ولذلك انتظرت ·

ـ وهاأنذا قد جئت · حمدا لله !

وعندئذ خطرت فى ذهنى فكرة أخرى ،فسألته :

ـ فيليب ، أين كانت بيرث ؟ كنت أظن أنها كانت معك ··

ـ جاءها برنارد ، وأرادها لأمر ما ·

ـ فهمت · حسن ، اذهب الآن واخلع ملابســـك المبتلة ، وسوف أحضر لك الحمام ·

وذهبت لأفتح الماء فى الحمام وضـــربت الجرس لبيرث ، وبمجرد أن أغلقت الماء ثانية سمعت طرقا على باب حجرة نومى . لم تكن بيرث ، بل مدام دى فاللى ، فتطلعت اليها باندهاش : وهى لا تأتى عادة الى هذه الحجرات ..

كان هناك تعبير غريب يبدو واضحا فى وجهها . وقالت :

ـ آنسة مارتن .. هل أنت .. تذ .. تذكرت أن تحضرى دوائى معك اليوم ؟

ـ نعم يامدام ، تذكرت ، سأذهب وأحضره لك فى الحال !

ـ أنا آسفة لأزعاجك وأنت تغيرين ملابسك .

ـ أوه .. الحمام ، تقصدين . لا ، انه ليس لى ، انه لفيليب ..

وناديت :

ـ فيليب ، حمامك جاهز !

وذهبت الى حجرة جلوسى لأبحث عن حقيبتى . كنت أفكر فى الطريقة التى سأخبرها عن نجاته من موت

محقق ، ولكن عندما استدرت عائدة اليها ثانية ورأيت وجهها ، توقفت من الرعب · كانت تتطلع الى الحمام ، وكأنها تتصـــنت على فيليب فى حمامه ، ولكن كانت عيناها مغلقتين وخداها رماديين ·

ـ مدام ، هل أنت مريضة ؟!

ـ لا ، لا ·· سأكون على مايرام بعد قليل ·· أين أقراصى ؟

ـ لابد أنها فى جيب معطفى · نعم ، هاهى !

فقبضت على العلبة الصغيرة التى ناولتها لها ، وقالت :

ـ شكرا لك · لا تقلقى على يا آنســـة مارتن ·· هذه الأمور تمر ببساطة ··

ونظرت تجاه الحمام ، حيث كان فيليب يصــــدر كثيرا من الضجيج وقالت :

ـ يبدو على فيليب ·· أنه سعيد جدا ·

فقلت بابتهاج :

ـ أوه ، نعم · ·انه بخير !

وفتحت الباب لها ورأيت بيرث فى الخارج ، على وشك أن تطرق الباب ، **فقلت :**

– أوه ،، بيرث ، المدام تبدو متعبة بعض الشيء ، اصحبيها الى حجرتها ونادى على ألبرتين ، هل هذا ممكن ؟ ·· وانتظرى حتى تحضر ، ثم عودى الى هنا ثانية ·

– حاضر يا آنسة !

كان عقلى مشغولا بسؤال جديد الآن ·· ما هو هذا الدواء الذى كانت مدام دى فالى فى حاجة اليه بهذا الشـــكل الملح ؟ لقد كنت أفكر أنه عبارة عن أقراص منومة ·· ولكنها كانت تبدو كأنها تعانى من نوبة قلبية أو عصبية · ولايمكن أن تكون الأقراص المنومة مفيدة لذلك ··

وخـــرج فيليب من الحمام مرتديا ملابس النوم ، **فقلت له :**

– فيليب ، اننا لن نخبر بيرث عن ·· مغامرتك · ان زوجة عمك صحتها ليست على مايرام ، ولا أريدها أن تتكدر فى الوقت الحالى ·

ـ حسن ، ولكن ٠٠ سوف تخبرين عمى ليون ، اليس كذلك ؟

ـ طبعا ٠ انه لمن المدهش أنه لم يسمع سـقوط الحجر بنفسه ٠ كان فى البهو عندما دخلت ، وكان ذلك بعدها بلحظات قليلة فقط ٠٠ آه ، بيرث ٠ كيف حال المدام ؟

ـ افضل يا آنسة ٠٠ انها راقدة الآن ٠٠ البرتين تقول انها سوف تكون بخير وستنزل للعشاء ٠

ـ أنا سـعيدة لأسمع ذلك ٠٠ هل ٠٠ تناولت اقراصها ؟

ـ أقراص ؟ لا يا آنسة ، انها كانت فى حاجة لدواء القلب ٠ انها تحتفظ به بجانب فراشها ٠ البرتين أعطته لها ٠٠

ـ فهمت ٠٠ على فكرة يا بيرث ، اليس من المفروض ان تكونى فى جناح حجرة الدراسـة أثناء وجودى فى الخارج ؟

ـ نعم يا آنسة ، ولكن برنارد جاء من أجلى ٠٠ كان يريد شيئا كنت أحيكه للسيد ٠

ورمتني بنظرة جانبية ، فتذكرت كلام مسز سيدون وقلت :

– فهمت · حسن ، كان يجب الا يبعدك هذا طويلا

– لا يا انســـة ، ولكنه لم يكن فى المكان الذى وضعته فيه · لقد حركه شخص ما من مكانه ·

– حسن ، السيد فيليب خرج ليلعب فى الشرفة ، وبلل نفسه ، لذلك من الأفضل أن يتناول عشاءه فى فراشه ·

– نعم يا آنســـة ، ولكن تعرفين ·· برنارد كان متعجلا وهو ·····

وقطعت كلامها ، وأصبحت فى لون قرنفلى ، فقلت فى نفسى :

– ولكنك كنت تودين ذلك ··

وتناولت العشاء مع فيليب ، وبعد ذلك قرأت له قصـــة ·· ولكنى عندما خـــرجت متجهة الى المطبخ لأحضر له مشـــروبه المعتاد قبل النوم ، أصـــر على مصاحبتى ·· وتركته يراقب الحليب على الموقد أثناء وضعى معيار الكاكاو والسكر فى الفنجان الأزرق الذى

اعتاد على استعماله ، وبقيت معه حتى شربه ، ثم قبلته قبلة النوم ، ولكنه تمسك بى بشكل ملح ، فقررت الا انزل لمقابلة ليون دى فالى فى تلك الليلة ٠

واخلد فيليب للنوم اخيرا ، ولكن عقلى كان مفعماً بالقلق ، فلم أستطع أن أرتاح ٠٠ وعندما سمعت – فى وقت متأخر – صوت سيارة قادمة صاعدة المنعطفات ، قفزت على قدمى ، وتسحبت بهدوء خلال الظلال الى باب حجرة فيليب ٠ كانت أعصابى مشدودة ومتوترة ٠

كان نائما ، فعدت الى حجرة نومى ، وكنت أعد نفسى لدخولى الفراش عندما طرق شـــخص ما على الباب برقة ، فقلت مندهشة بعض الشىء :

– من بالباب ؟

– بيرث يا آنسة !

كانت تحمـل لفافة ، ورمقتنى بنظرة فيها غرابة وقالت :

– هذه لك يا آنســة ٠ فكرت أنك قد تكونى فى فراشك ، ولكنى أمرت أن أحضرها لك فى الحال ٠

تملكتني الحيرة ، فجلست على السرير ، وفتحت اللفافة ·· وظللت جالســــة لبعض الوقت ، ناظرة الى القماش الأبيض المطرز بالخيوط الفضـــية ·· وعندئذ لاحظت ورقة بها رسالة تقول :

ـ آسف اذا كنت قد آذيت شعورك · كان يقلقني أمر ما ، ولكن هذا ليس بعـــذر · لقد أحضـــرت لك لفافتك ! ·· هل ستغفرين لي ، من فضلك ؟ ·· راؤل ·

الفصل الثانى عشر

وفى الصباح التالى بدا كل شىء وكأنه حلم • غادر راؤل فالى مبكرا ، هذه المرة الى الجنوب وبلفين ، ولم أره وهو يذهب •

وعندما ذهبت الى المكتبة لأخبر مســـتخدمى عن نجاة فيليب الثانية ، كان جالسا خلف المكتب الكبير • استمع الى قصتى بنظرة غريبة قاتمة ظهرت واضحة فى عينيه ، ثم جلس بعدها فى صمت لمدة دقيقة ، فانتابنى شعور بأنه قد نسى وجودى هناك ••

بعدها قال فجأة :

ــ ثانية ؟!

فقلت مندهشة :

– مسيو ؟

– هذه هى المرة الثانية فى أيام قليلة يا آنسة مارتن ، نبدى لك شكرنا ٠٠ لنفس هذا السبب المزعج ٠ فقلت :

– أوه ، فهمت ، ليس هناك مدعاة لذلك ٠ أى امرىء ٠٠٠ ٠٠٠

– أى امرىء كان قد فعل نفس الشىء ؟ لا يا آنسة مارتن ، مازلت أعتقد أننا محظوظين بوجود ٠٠ فتاة كفء مثلك للاعتناء بفيليب ٠ متى وضعت السلم الخشبى هناك ؟

– بالأمس فقط ٠٠

– حقا ؟ ٠٠ وما الذى جعلك تفعلين ذلك ؟

– قبل ذهابى الى ثونون خرجت الى الشرفة لأرى اذا كانت السماء ستمطر ٠٠ كان السلم الخشبى ممددا هناك ، فظننت أن العمال كانوا هناك ٠٠ ولاحظت أن الحجر كان سائبا ، ولكنى كنت فى عجلة من أمرى للحاق بالأتوبيس ، ولذلك ، ما كان على الا أن ادفع

بالسلم الخشبى امام الحجر · كان يجب على أن أخبرك فى الحال ·· انى ·· انى فى غاية الأسف !

ـ لاداعى لأسفك ، فلا يمكن أن تعرفى أن الحجر سائبا بهذا الشكل · سوف اقيم مشكلة بخصوص ذلك ، ولكن دعينا نمتن لعدم وقوع أى مكروه !

تكلم بهدوء شديد لدرجة أنى رميته بنظرة اندهاش حادة ، فرد لى نظرتى بنظرة منه · وقال :

ـ حسن يا آنسة مارتن ؟

فقلت فى ارتباك :

ـ لا شىء ، أنا ·· انك تأخذ الموضوع ببساطة · لقد توقعتك أن تكون غاضبا ··

فقال :

ـ ولكنى غاضب ، غاضب جدا ·· !

والتقت عيناى بعينيه فى هذه اللحظة فأدركت انه كان يقول الحقيقة ·· وواصل حديثه :

ـ ·· ولكن لكونى رجـــلا عاقلا ، فانى احتفظ بغضبى لهؤلاء الذين يقع عليهم اللوم ·· عندما يكون المرء عاجزا يا آنســـة مارتن ، فعليه أن يتعلم تجنب

المجهود غير المجدى ‥ ماهو النفع من وراء الصياح عليك ؟ وأنت لا لوم عليك ‥ كيف حال فيليب ؟

– فيليب ؟ أوه ، كان خائفا ومتكدرا ، لكنه على مايرام الآن ‥ بل انه حتى فخــور بعض الشــىء بمغامرته ‥

وأضفت قائلة :

– متى يأتى مسيو هيبوليت للبيت ؟

فأدار رأسه بسرعة ، وتحرك الكرسى بشكل مفاجىء لدرجة أن الذراع اصطدم بحافة المكتب ٠

فصرخت قائلة :

– لقد أصبت يدك ! انها ‥ انها تدمى !

– انها لا شىء ‥ ماذا كنت تقولين ؟

– تساءلت متى يأتى هيبوليت عم فيليب للبيت ؟

– ليس عندى أى فكرة ‥ ولكن لماذا ؟

تطلعت لأراه يراقبنى ، وكان هنــاك شىء ما فى حملقته الهــادئة الجمنى ثم أرخى عينيه القاتمتين ، وحرك سكين قطع الأوراق الملقاة على المكتب بضـــعة سنتيمترات الى أحد الجوانب ، وكرر قائلا :

ـ لماذا تسألين ؟

ـ لأن فيليب يسألنى دائما ، وأنا أتساءل اذا كنت قد سمعت من مسيو هيبوليت ؟

ـ آه ، حسن ، مع الأسف ، أنا لا أعرف بالضبط .. ان أخى مقصر فى كتابة الرسائل ، لكنه سيتأخر ثلاثة شهور أخرى على الأقل .. أعتقد أن فيليب يعرف ذلك ..

ورفع سكين قطع الأوراق ، ووضعها حيث كانت بالضبط من قبل ، وابتسم بطريقة ساحرة ، وقال :

ـ حسن يا آنسة مارتن ، اننى لن أعطلك ، ومازلت أرى أن أستخدم بعض ذلك الغضب فى اتجاهه الصحيح !

واتجه الى التليفون ، وهربت أنا من المكتبة . كنت أفكر .. لماذا يجعلنى دائما أشعر مثل فأر بين مخالب قط ، مخالب لطيفة ، ولكنها مهددة ؟

كنت أفكر أيضا فى ذلك الغضب الذى نوقش أكثر من اللازم . كان لدى الاحساس بأنه ـ مهما قال ـ فبعضه كان موجها مباشرة الى ..

لم يعد باقيا الا أسبوعين فقط على حفلة عيد الفصح ، وكان لدى عمل كثير أقوم به للانتهاء من ثوبى • أقرضتنى بيرث ماكينة الخياطة التى تستخدمها لأجل خياطة البيت البسيطة ، وحيث أنها كانت فى نفس حجمى ، لذا وافقتنى على أن أفصل الموديل عليها •

ومع مضى الأيام ، أصبح القصر مليئا بالنشاط والحيوية ، واذا كان هناك أى نقص فى المال حقا هنا ، فلن يستطع أحد أن يخمن ذلك •• وفتحت حجرات النوم نادرة الاستخدام ، لقدوم ضيوف فى نهاية الأسبوع ، وفتحت قاعة الاحتفالات الضخمة وحجرة الجلوس الكبيرة ، وغسلت المصابيح ولمعت المرايا ونقل الأثاث والسجاد من مكان لآخر • وكان كل شىء تحت امرة مسيو دى فالى بعينه الثاقبة •• وكان كرسيه يتحرك فى كل مكان ، وصوته كان يسمع فى كل حجرة •

وهكذا ، قطعة قطعة ، وركنا ركنا ، أصبح المنزل الكبير معدا لحدث العام • وبدت الاثارة تتكثف فى الهواء مع اقتراب موعد عيد الفصح •

وعندئذ جاءت اللمسات الأخيرة ، فتم احضار مئات من الزهور وضعت فى زهريات ، ورتبت على

جوانب قاعة الرقص والقاعة الكبيرة ، كما وضعت احواض ضحلة من الماء فى الأركان ، محاطة بالنباتات وشجيرات صغيرة ، وثبتت الأضواء الملونة حول الساحة الخارجية كلها ··

كان قصر دى فالمى يحتفل ·· !

وفى يوم السبت وصل الضيوف · ولم يكن هناك اى اثر لراؤل ، كما لم يأتى ذكره مطلقا · هل سيأتى ؟ أوه ·· هل سيأتى ؟!

بقيت انا وفيليب بعيدا عن طريق الضيوف ، فى جناح حجرة الدراسة · وفى مساء الأحد ، بعدما ذهب فيليب الى فراشه ، كنت أنهى العمل فى ثوبى ، ولقد بقيت بيرث لتساعدنى ·· فارتدته وهى تلف حول نفسها أمامى ، بينما كنت أراقبها بعين ناقدة · وقلت :

ـ اخشى انه سيبدو صناعة منزلية ، بجانب الأثواب الرائعة بالطابق السفلى · هل مسيو فلوريمون هنا ؟

ـ أوه ، انه يأتى دائما · انه يقول دائما أن لاشىء يجعله يغيب عن هذا اليوم مهما كان ·· انه يصمم نصف ملابس السيدات ، على كل حال ·

– ومسيو راؤل ؟ هل يأتى عادة ؟

كانت هناك لحظة صـــمت صغيرة ، رمتنى **بيرث** بنظرة جانبية **وقالت :**

– انه لم يحضرها منذ سنوات ، ولكنهم يتوقعون مجيئه هذه المرة !

وبدأت ألتقط الدبابيس المتناثرة فوق الأرض . وبعد لحظة ، **قالت بيرث :**

– لماذا لا تجربيه عليك الآن يا آنسة ؟ أريد أن أراه عليك ..

– وهو كذلك !

وذهبت الى حجرة نومى .. وساعدتنى فى ارتداء الثوب .

– هل أساعدك فى ارتدائه غدا يا آنسة ؟

– أوه بيرث ، كم هذا لطيف منك ! طبعا أحب ذلك جدا ..

وأخذت ألتفت يمنة ويســرة أمام المرآة . **وقالت بيرث :**

ـ أوه يا آنسة ، انك تبدين جميلة ! لن يكون هناك ثوب أجمل منه انه لشيء مؤســـف لعدم وجود مرآة أفضل لترين نفسك كاملة ٠

ـ قالت لى المدام أنى أستطيع استخدام المرآة التى فى حجرتها ٠ سأذهب هناك وألقى نظرة ٠٠

كانت هناك حجرة جلوس صغيرة تؤدى الى حجرة نوم مدام دى فالى ٠٠ ذهبت من خلالها ، تاركة الباب مفتوحا ٠ كانت حجرة جميلة ، كلها أضـــواء ناعمة وحرير وردى اللون ٠٠ ووقفت أمام المرآة الضخمة ، مع الســـتائر الحريرية الوردية من خلفى ٠٠ وأثناء تحركى كانت الخيوط الفضية تسطع فى الغلالة البيضاء للجونلة ٠

وكان هناك شخص يقف بباب الحجرة ، وجاءت خطوات سريعة عبر الحجرة ٠ وســمعت صوت راؤل وهو يتساءل :

ـ هيلواز ، هل تريديننى ؟

عندئذ رآنى ، فتوقف فجأة ، وقال :

ـ لماذا ٠٠ هالو ٠٠

كان يلهث بعض الشيء ، وفتحت فمى لأرد عليه ، ثم تلعثمت ، فأغلقته ثانية ، ولم اكن أستطع الحديث اذا حاولت ٠٠

لملمت ثوبى وتحركت نحو طريق الباب ، حيث كان يقف ٠٠ ولم يتنحى جانبا ، بل اتكأ على حافة الباب ، وقال :

– لا تهربى دعينى أنظر اليك !

– يجب على ٠٠ أقصد ، من الأفضل لى ٠

لست متأكدة مما حدث بعد ذلك ٠ أعتقد أنه تحرك
– لا ٠٠ !

ثم قلت أيضا :

– وهى كذلك ٠ هل تريدى أن تهربى فعلا ؟

وأعتقد أننى قلت ، بطريقة ما :

– لا ٠٠ !

ثم قلت أيضا :

– راؤل !!

عندئذ جاء مبتعدا عن عضادة الباب ٠٠ ثم عبر الحجرة وأخذنى بين ذراعيه ٠ وأزعجنى ضوء الحب

الملتهب فى عينيه ، ولكن ، الى حد ما ، أرضى أعظم أحلامى الرومانتيكية ٠٠

وانفلت منه أخيرا قائلة :

ـ ولكن راؤل ، لماذا ؟

ـ ماذا تقصدين ، لماذا ؟

ـ لماذا أنا ؟ المربية الصغيرة ٠٠ وأنت ٠٠ يمكنك الحصول على أى فتاة ٠٠ لماذا ؟

فأخذنى بيديه وأدارنى لأواجه المرآة ثانية ، وقال :

ـ لاداعى أن تحطين من شأنك ، أيتهـا المخلوقة الجميلة ! أنظرى الى نفســك ٠ هذا هو الرد على : لماذا ؟

كان هناك صوت خافت جاء من الحجرة الأخرى ، فأدار رأســه بحدة ، ثم تركنى أفلت من بين يديه ، وقال :

ـ آه ، هيلواز ، اننى أبحث عنك ، أعتقــد أنك تريديننى !

لقد كنا واقفين على مدى رؤية أى شخص يدخل

الى حجرة الجلوس ، حيث أصبحت هيلواز دى فالى الآن ، تتحدث الى شخص ما خلفها ، وكانت ألبرتين بجانبها ..

كان من المستحيل القول اذا كانت مدام دى فالى قد رأت راؤل ممســـكا بى أم لا ، ولكنى أدركت أن ألبرتين قد رأتنى ..

ـ مدام .. كنت أستخدم مرآتك لأجرب ثوبى .. انك قلت أنى أستطيع ذلك ..

نظرت بعينيها الرماديتين الى من فوقى الى تحتى بدون تعبير ، وقالت بصوت بارد :

ـ طبعا .. هل هذا هو الثوب الذى قمت بتفصيله بنفسك ، يا آنسة مارتن ؟ انه جميل جدا ! لابد أنك ماهرة مع ابرتك ..

فقلت فى نفسى : لابد أنها رأتنى بالفعل !

ـ تصبحى على خير يامدام .. تصبح على خير مسيو .. وتسللت خارجة الى الممر ، وركضت عائدة الى حجرتى .

وفى اليوم التالى قضـــيت كل وقتى مع فيليب .

ولحسن الحظ لم يكن على أن اقابل مدام دى فالمى ٠٠ وبعد الغداء احضرت لى البرتين رسالة شفوية : هل يمكن أن نسمح بأخذ جولتنا اليوم فى اتجاه القرية ، حيث أنه لا يمكن الاستغناء عن أى واحدة من الخدم ؟ وأثناء حديثها ، كانت الكراهية واضـــحة فى صوتها ووجهها ٠٠

ووافقت بأدب ، وأخذت فيليب وهو غـــير راغب ونزلنا الى سوبيرو ٠ وقات لنفسى بثبات أن كراهية البرتين لن تؤثر فى ٠ ولكنى كنت مخطئة ٠

وبينما كنت على وشـــك الدخول الى الصيدلية ، خرجت البرتين نفســـها ٠٠ البرتين ، التى « لا يمكن الاستغناء عنها اليوم » ! ٠ فحملقت فيها باندهاش ٠٠ فلم تظهر فى وجهها أية علامة من علامات الارتباك ٠٠ ولكنها رمتنى باحدى نظراتها الجانبية القاتمة ، ودخلت الى محل الحلوى الذى يقع خلف المقهى مباشرة ٠

كان تصرف الصيدلى معى ، عندما دخلت المحل ، باردا جدا ٠ وكان هذا ليس بالشىء غير العادى ، ولكنى عند خروجى من المحل التقيت وجهـــا لوجه مع مدبرة منزل القسيس ، وفى هذه المرة لم يكن هناك أى

شك ازاء التغير ٠ فبدلا من ابتسامتها الصـــدوقة ، أعطتنى ايماءة مقتضبة ، مصحوبة بحملقة باردة !

وفيما بعد ، عندما اشتريت بعض الشيكولاتة من محل الحلوى ، لاحظت أن ابتسامة المدام الســـمينة أصبحت صارمة قليلا ٠ وكانت عيناها الســـوداوان فضوليتين وهى تقول :

ــ ومتى ستتركينا يامدموازيل ؟

فقلت ببرود :

ــ اننا لا نذهب الى ثونون من فترة طــويلة ، يامدام ٠٠ ان مسيو هيبوليت غير متوقع حضوره قبل ثلاثة أشهر ٠

وأثناء عودتنا ســـائرين فى شارع القرية لاحظت حملقات وهمســات أخرى ٠ لقد قامت ألبرتين بعملها جيدا ، حسن : وكانت الأخبار تغطى كل سوبيرو ٠٠ لكن أى أخبـــار ؟ ترى ما الذى قالته لهم عن راؤل وعنى ؟!

وبعد تناولى الشاى ذهبت لأبحث عن مسز سيدون، فهى قد تحكى لى ــ على ما أعتقد ــ ماهى القصص التى تدور بين الخدم ٠ ولكنى علمت أن الاثارة والعمل

الزائد قد جلب لها احدى نوبات الأزمة الربوية المريضة بها ٠٠ ولقد ذهبت الى فراشها ، وغير مستعدة للتحدث مع أحد ٠٠

كان فيليب متكدرا أيضا : كان يشعر بأنه منسى وبعيد عن كل هذا الاهتمـــــام ، ورفض أن يذهب الى فراشه تماما الا اذا صعدت « فى منتصف الليل » وآخذه ليلقى نظرة على الرقص ٠ وبعد أن وعـــدته رضى ، وذهب مع بيرث ، وذهبت أنا لأجهز حمامى ٠

كان يجب على أن أكون سعيدة وأنا مرتدية ثوبى الجميل لأول مرة أرقص فيها ٠٠ مع وجود راؤل فى مكان مابين الراقصين ٠٠ ولكن كانت تجرى فى ذهنى فكرة : أنهم قد يستغنوا عنى ويطردونى ٠٠ ليبعدونى عن فالمى ٠٠ وعن راؤل ٠٠ حتى حديث بيرث لم يبهجنى كما كنت أتوقع ، بل لاحظت أنها أثناء مساعدتها لى فى ارتداء الثوب ، كانت صامتة ورسمية بشكل غير عادى ٠٠

وسمعت طرقا على الباب ، وذهبت بيرث لتفتحه ٠٠

وعادت وهى تحمل صندوقا وقالت :

ـ هذا لك !

كان الصندوق خفيفا ومفلطحا ·· ومن خـــلال الغطاء البلاستيك استطعت أن أرى زهورا رقيقة بيضاء في لون الحليب على أغصان خضراء خضرة داكنة ·· مع بطاقة ظاهرة بين الأغصان ،بها حرف واحد كبير وأسود : « ر »

وانهيت ارتداء ثوبي في صمت ، ثم شبكت الأزهار على ثوبي ، وذهبت نحو الموسيقى والضحك ··

الفصل الثالث عشر

كانت حفلة الرقص قد بدأت منذ قليل ، وكنت ممتنة لأرى أن مسيو ومدام دى فالمى قد انتهيا من استقبال ضيوفهما وكان مكانهما عند نهاية السلم الكبير خاليا . ترددت عند قمة السـلم ، غير راغبة فى النزول على السلالم العريضة بمفردى . عندئذ مر من جانبى ثلاث نساء ، فتمكنت من النزول خلفهن .

كان من السهل التسلل الى حجرة الرقص دون أن يلاحظنى أحد .. وعثرت على ركن محمى بصـف من الأزهار ، وجلست بهدوء لأراقب الراقصين والراقصات.

كانت هيلواز ، رائعة المنظـــر فى رداء حـــريرى بخضرة البحر ، ترقص مع رجل مرموق له لحية ٠٠ ورأيت فلوريمون واقفا بعيدا هناك ، بجـــانب أحدى النوافذ ، يتحدث ، أو بالأحرى ، يستمع لامرأة عجوز شمطاء ذات شعر أزرق !

وتلفت أبحث عن راؤل ٠ ورأيته أخـــيرا ٠٠ كان يرقص مع فتاة شقرا ء ذات عينين خضراوين وفم جميل ٠٠ كانت ترقص ملاصقة جدا له ، وكان هو يبتسم لها ، وينزل بعينيه الى عينيها ٠ كانا ثنائيا رائعا ، ولاحظت أن كل الأنظار متعلقة بهما وتتبعهما ٠ نعم ، فالأنظار تتبع راؤل دى فالمى دائما ٠ ٠وتساءلت فى نفسى من هى هذه الفتاة ٠٠ ؟!

وتوقفت الموســـيقى ، وتحرك الناس للخلف الى جوانب حجرة الرقص ٠٠ كنت مختبئة وسط الناس ، ولم يلحظنى أحد ٠ كانت هناك أسماك زينة فى حوض كبير بجانبى ، فاخذت أتأمل الأشكال الذهبية والفضية التى تتحرك باحتراس فى الماء ٠

وبدأت الموسيقى ثانية ٠ ورقص راؤل هذه المرة مع امرأة اكبر سنا ترتدى ثوبا أزرق قبيحا به مجوهرات بديعة ٠٠ ثم مع امرأة سمراء بهية الطلعة ٠٠ ثم مع

الفتاة الشقراء الجميلة ، ثانية ·· ثم مع امرأة عجوز ذات شعر أحمر زاه · ثم مع امرأة ذات شعر أبيض ووجه لطيف ·· ثم مع الفتاة الشقراء مرة أخرى ·· وتذكرت وعدى لفيليب ، فنهضت ··

وعندها قال صوت من خلفى تماما :

ـ مدموازيل !

فنفرت وكأنى مذنبة ، وكان مســـيو فلوريمون ، يبتسم ابتسامته الساحرة وهو يقول :

ـ لا يجب أن تهربى الآن ، يامدموازيل ! لقد تحدثت مع سيدات طاعنات فى سن بما فيه الكفاية الليلة ·· ولا أرقص ، كما ترين ·· دعينى أستمتع بالتحدث الى فتاة صغيرة وجميلة !

فقلت ، وأنا أرى يده تذهب الى جيبه :

ـ والاســتمتاع بتدخين هادىء فى نفس الوقت ؟ حسن يامسيو فلوريمون !

وجلست مرة أخرى ، فقال وهو يخرج علبة سجائره بابتسامة :

ـ المرأة العطوفة كنز يفوق الجواهر · هذا ثوب

جميل جدا ياعزيزتى ! ولكن لماذا تخفى نفسك بعيدا ؟ لم أرك ترقصين !

– أنا لا أعرف احدا !

– أوه ، أوه ! ألم تعرفك هيلواز بأى من الشباب ؟!

– اننى لم أرها فى الحقيقة ·· لقد نزلت متأخرة !

– والآن هى ·· آه ، نعم ، انها ترقص · اذن أين راؤل ؟ انه يعرف الجميع ، وربما هو ··

– أوه ، لا · أرجوك ! اننى ·· اننى كنت على وشك الصعود ·· لقد وعدت فيليب أن أراه · لا تزعج مسيو راؤل من فضلك !

– تصعدين الى أعلى ؟ ولا تأتين ثانية ، أهكذا ؟! وتطلعت العينان العطوفتان الى وهو يقول :

– وهل هذا أيضا هو سبب نزولك متأخرة هكذا ، وسبب اختبائك بين الأزهار ؟

– لا ، أنا لا ·· ماذا تقصد ؟!

فقال بلطف :

– ياعزيزتى · ألم تتعلمى بعد أن كل شىء يفعله أفراد أسرة فالمى يصبح أخبارا فى الوادى ؟

فقلت بمرارة :

ــ اننى أتعلم ٠

وكانت عيناى على السمك وهو يتحرك الى الخلف والى الأمام فى حوض الماء الجميـــل ٠ وأخيرا تكلم قائلا :

ــ انك صغيرة جداً !

ــ اننى فى العشرين !

فقال بتبصر :

ــ مدموازيل ، اذا حدث وفكرت فى مغادرة فالمى ، فأين ستذهبين ؟

فحملقت فيه عبر لحظة صمت ٠٠ هنا ، أيضا ٠٠ انها حقيقة اذن ٠٠ لابد أن مدام دى فالمى قد قالت شيئا عن الاستغناء عنى ؛ وقد أتى مسيو فلوريمون العطوف ليحدثنى عن ذلك ٠٠ ويبدو أن علاقتى مع راؤل أصبحت شغل كل الناس ٠

لا أدرى تماما ما الذى كنت أفكر فيه أنا نفســـى بالنسبة لهذه العلاقة ٠ كنت لا أستطيع أن أرى وراء حقيقة أننى أحببته وأنه كان هنا الليلة ٠٠ أردت أن أراه

وكنت خائفة من أن أراه ·· أما عن أحاسيس راؤل وهدفه ·· أو « نواياه » ·· فلم أفـكر فى ذلك على الاطلاق !

واستمر فلوريمون فى لطفه قائلا :

ـ هل لديك أصدقاء فى فرنسا ، أم أنت وحيدة هنا يامدموازيل ؟

ـ أنا لا أعرف أى أحد فى فرنسا ، لا · ولكن دعنا نكون شرفاء يامسيو · ·انك قلق على لأنهم شاهدونى بين ذراعى راؤل ، وسيستغنوا عن خدماتى · أليس كذلك ؟

ـ ليس تماما · انى قلق لأنك أيضا تحبين راؤل ياطفلتى !

فقلت وأنا غير قادرة على التنفس :

ـ اذن ، وما الخطأ فى ذلك ؟

ـ ان الذى قلته ، هو أنك صغيرة ، وليس لديك أحد تلجئين اليه ·

ـ وهل من المستحيل ان أستطيع أن ألجأ ـ كما

قلت بتعبيرك — الى راؤل ؟ هل من المستحيل لهذه الدرجة أن ٠٠ يهتم بى ؟!

فاخذ نفسا عميقا وقال :

— أنت وراؤل ؟ ٠٠ لا يامدموازيل ٠ ولا ولا ولا !!

فقلت بعد برهة صمت :

— الى أى مدى تعرفه ؟

— راؤل ؟ أعرفه بما فيه الكفاية ٠ ليس عن قرب ، وبما ، ولكن ٠٠

فازداد غضبى وقلت :

— اذن ، طالما أنك لا تعرفه بشكل جديد ، فربما ستفسر ماذا كنت تعنى !

— ياعزيزتى ، لا أستطيع ٠ كان لا يجب أن أقول ذلك ٠٠ لكن ٠٠ حسن ، هناك ٠٠ أسباب ٠٠

فقلت :

— وهو كذلك ، سوف نتركها ٠ لقد حذرتنى ، وكان هذا لطفا منك ٠ هل لنا أن ننتظر ونرى ؟

فتنفس بعمق ، وقال :

– كنت مخطئا ٠ انك لست صغيرة كما اعتقدت ٠

وأشعل سيجارة أخرى وقال :

– حسن ، لا تنسي ، عندما تقومين بهذا اللجوء ، أن لديك شخصا آخر تلجئين اليه ٠

وخفت غضبى ، وقلت وأنا أبتسم :

– مسيو فلوريمون ٠٠

– اغفرى لى ، ياطفلتى ٠ أنا آسف أن النصيحة جاءت متأخرة ٠٠

فابتسمت له ثانية وقلت :

– مسـيو فلوريمون ، انك ظريف جدا ٠٠ ولكن أجل ٠٠ متأخرة جدا !

وجاء صوت راؤل من فوقى :

– وهكذا أنت هنا ! كارلو ، لماذا تخفيها فى هذا الركن ؟ ٠٠ تبا لذلك ، لقد ظللت أراقب الأبواب طيلة الساعتين الماضيتين ! عن ماذا كانت هذه المناقشـــة

الجادة ؟ وما الذى جاء متأخرا كما تقولون ؟!

فقال فلوريمون بهدوء :

ـ انت ، واحد من المتأخرين ، والآن خذ آنسة مارتن بعيدا وأرقص معها ، وحاول أن تعوضها عن تركها للنظر فى الأسماك الذهبية !

فضحك راؤل وقال :

ـ سأفعل ذلك ٠٠ لندا ، تعالى هنا !

ثم قال بصوته الدافىء فى أذنى :

ـ ياله من وقت طويل ٠٠ لماذا تغيبت هكذا ؟!

ـ كنت خائفة أن أنزل ٠

ـ خائفة ؟ يا الهى ، لماذا ؟ أوه ،طبعا هيلواز ٠

ـ انها رأتنا ٠٠ تعلم أنت ذلك

ـ نعم ٠ عليك أن تتعلمى بالا تكترثى !

ـ ماذا تقصد ؟

كان قلبى يخفق بعنف ، ودار بى مع الموسيقى ٠٠

فمرت الوجوه المراقبة سراعا ٠٠ مجموعة من الرجال ٠٠ وكرسى متحرك ٠٠

ليون دى فالى ٠٠ انه كان يراقبنا طبعا ٠٠ وبدا كما لو كان ظـــلا قاتما قد مر فوق الألوان المتحركة بابتهاج ٠ تبا للرجل ، كنت خائفة منه ٠٠ أليس كذلك ؟ وعندما استدرت فى الرقصـــة وواجهته مرة أخرى ، تطلعت اليه مباشرة وأعطيته ابتسامة براقة !

كان مندهشا : لم يكن يوجد شك فى ذلك ٠ رأيت الحاجبين الأسودين يرتفعان بحدة ٠ ثم أعاد الابتسامة الى شفتيه وبدا ضاحكا ٠٠ ولكن كان لدى شعور بأنه كان يضحك على نكتة لا أســـتطيع أن أدركها ٠ كان شعورا مقبضا غريبا ٠٠

وعندما انتهت الرقصة كنا عند الجانب الآخر من الحجرة ، ووقف راؤل ساكنا بجانبى ، وبدا غير واع بالحملقات الفضولية الموجهة الينا ٠٠ وبدأت الموسيقى مرة أخرى ٠ فقلت بصوت منخفض :

– اسمع ، ليس عليك أن تقلق من أجلى

فقال ، وهو يلفنى معه فى الرقص ثانية :

ـ لا تكونى غبية · لقد قمت بنصيبى من العمل الليلة ، والله يشهد · لقد رقصت مع كل سيدة عجوز فى القاعة ، هذا بالاضافة الى أننى لم أستطع العثور عليك قبل ذلك ، والا لكنت قد أهملت واجبى ··

كنا نرقص قرب النوافذ الطويلة المفتوحة على الليل الجميل ·· فقادنى خارجا الى السـاحة الأمامية ·· وتبعتنا الموسيقى من خلال النوافذ ·· وكان قمر عيد الفصح يسطع علينا · لم نتكلم ·· ورقصنا على طول الساحة ، ثم دخلنا من خلال النوافذ المعتمة الى حجرة الجلوس الصغيرة ، التى كان لا يضيؤها سـوى نار المدفأة ·

كنا فى الظلال ·· فتوقف ، وكانت ذراعاه تحيطانى باحكام ، **ثم قال :**

ـ والآن ··

وعندما استطعت الحديث ، **قلت برعشة :**

ـ أحبك · أحبك · أحبك ··

وطبعا ، بعد هذا التصـريح الأحمق ، كان من المستحيل أن أتكلم لبرهة طويلة !

وأخيرا أفلتنى وقال :

ـ حسن ، ألن تسألينى ؟

ـ أسألك عن ماذا ؟

ـ السؤال الذى تسأله كل فتاة فى العالم : هل تحبنى ؟

ـ سأكون قانعة بما تريد أنت أن تعطيه لى !

ـ أخبرتك من قبل الا تكونى متواضعة . لندا .. لندا .. ان أمر الحب هذا .. لا أدرى .. هذا بأمانة .. لا أدرى ..

ـ ليس مهما ياراؤل ..

ـ بل يهم .. لقد كانت هناك نساء أخريات .. تعرفين ذلك .. لكن علاقتى بك تختلف تماما ..

ومرت برهة صمت ، ثم ضحك ضحكة صغيرة ، وقال :

ـ على كل حال على أن أقول ذلك ، أليس كذلك ؟ . ولكنه ... انه ...

وتحرك وجهه مقابل شعرى . وواصل كلامه :

ـ لندا .. انى اريدك .. احتاجك ، بالله ، احتاجك .. اذا كنت تسمين هذا حبا ..

فقلت :

ـ اننى لا احتاج أكثر من ذلك .. صدقنى !

وكانت هناك برهة صمت أخرى ، النار فى المدفأة تشتعل فى ثبات ، ثم قال فجأة :

ـ عن ماذا كنت أنت وكارلو تتحدثان ؟

ـ أنا .. لماذا ، لا أكاد أتذكر .. أشياء ، و .. أوه نعم ، ثوبى . كنا نتحدث عن ثوبى !

فابتسم وقال :

ـ لا تتهربى ، اعترفى . تحدثتما عنى . هل حذرك منى ؟ وقال لك أن تبتعدى عنى ؟

ـ نعم ، انه قال : « أنت وراؤل ، لا ولا ولا ! »

ـ حسن ، أعتقد أنه على حق ، الى حد كبير .. لقد أخبرتك كيف أشعر .. ولكنك : تقولين أنك تحبينى .

ـ نعم ، نعم .. نعم !

فابتسم :

ـ ثلاث مرات · انك كريمة جدا ··

ـ كنت أرد على كارلو ·· علاوة على أن لدينا قصيدة فى الأدب الانجليزى تقول : « ما أقوله لك مرات ثلاث فهو صادق » ··

ـ اذن ستجازفين وتقبلين الزواج منى ؟

وبدأت أرتعش · وقلت :

ـ ولكن أباك ··

فتحرك بسرعة وقال :

ـ أبى ؟ وماله بذلك ؟

ـ سيغضب ، وقد يجعلك تترك بلفين ··

ـ لا يهمنى ·· اننى لست مقيدا به ولا ببلفين ··

وضحك ضحكة غاضبة وهو يقول :

ـ وهل أنت خائفة أن تضسـرينى وتسيئى الى وضــعى ؟ وثروتى ؟ هذا مدهش ! هل تعرفين أننى لا أملك شيئا سوى بلفين ·· وهذه أيضا فقط الى أن يحصل فيليب على فالى ؟

ـ نعم ٠٠

ـ ومازلت ستقبلين أن تتزوجينى ، بدون ثروة ؟

وضحك :

ـ حسن ، لا حاجة لك أن تقلقى ازاء ذلك ٠٠٠ فبشكل أو بآخر ، سوف يكون لدى مال دائما ٠٠

فقلت :

ـ مغامر ، هذا هو أنت !

وتطلع الى وجهى وقال :

ـ ألست أنت كذلك أيضا ؟

فقلت ببطء :

ـ نعم ٠ أعتقد أنى كذلك ٠

ومرت برهة صمت ، ثم قلت :

ـ هل يجب علينا ٠٠ أن نخبرهم ؟

ـ لم لا ؟ هل هذا يحتاج الى شجاعة أكثر من اللازم ؟ ٠٠ سأخبرهم بنفسى ٠٠ وابتعدى أنت عن هذا الأمر !

ـ سوف يغضبون جدا ·· على كل ، فأنا كنت سأطرد على أية حال · كنت متوقعة أن أخطر بقرار طردى غدا ··

ـ تطردين ؟ لكن لماذا ؟ ماهو الجرم ؟!

فنظرت اليه بابتسامة صغيرة وقلت :

ـ أنت !

ـ هل تعنين لأن هيلواز رأتك وأنت بين ذراعى ؟ هل ستطردين من أجل ذلك ؟ ·· كلام فارغ !

ـ انه حقيقى ·· لقد قالت ألبرتين لكل شخص فى القرية ·· أنها تعرف ما تنوى المدام أن تفعله ·

ـ حسن ، لا يهم ذلك الآن ، أليس كذلك ؟ على أية حال ، أنا متأكد أنك مخطئة · هيلواز لن تعمل مطلقا على أن تدعك تذهبين ·

ـ بالفعل ، فأنا اســتغرب هذا التفكير ، بســبب فيليب ·· أنا ·· حسن ، لقد أنقذته فى الوقت الذى كاد أن يسقط من الشرفة ··

ـ أى وقت ؟ ما الذى تتحدثين عنه ؟

فقلت له باندهاش :

ـ ألم تعرف ؟

وأخبرته بالقصة .. وأنصت فى صمت وبوجه عابس ، كان هناك تعبير فى عينيه لم أستطع قراءته .

وأخيراً سحبنى وأوقفنى على قدمى وقال :

ـ حسن ياحبى ، دعينا نحتفل .. دعينا نذهب ونحضر قليلا من الشمبانيا !

فقلت :

ـ وبعض الطعام ..

كانت حجرة الطعام العظيمة حية بالناس والحديث .. وعندما وصلنا الى المائدة الكبيرة المتلألئة بالصحون الفضية ، تذكرت شيئا ، فقلت له :

ـ راؤل ، وعدت أن أصعد وأرى فيليب .

ـ فيليب ؟ لماذا ؟

ـ أعتقد أنه شعر بعزلته عما يحدث من أمور .. على أية حال ، لقد وعدته أن أصعد « فى منتصف الليل » .. أعتقد يجب أن أصعد الآن !

ـ اذن ، فأنا أصر على الصعود أيضا .. لماذا لا نكسر بعض القواعد الأخرى ونأخذ بعض الطعام الى الطابق العلوى ؟ .. وبذلك سيفرح فيليب ونحتفل نحن فى نفس الوقت ؟!

ـ أوه ، راؤل ، انها لفكرة مدهشة ! دعنا نقوم دعنا نقوم بذلك !

ـ سوف أقوم بتجميع بعض الأطعمة والمشروبات ، ماذا تفضلين ؟!

فقلت ببساطة :

ـ أى شىء .

وتطلعت مرة أخرى الى المائدة وقلت :

ـ اننى لم أر مطلقا أى شىء بهذه الروعة ، فى حياتى !

كان يتطلع الى وهو يسألنى :

ـ هل تقصدين أن تقولى أنك لم تحضرى حفلة رقص من قبل ؟

ـ بهذا الشكل ؟ ‥ مطلقا !

فقال :

ـ من شيمة المرء النســـيان ‥ واعتقد انك لم تتذوقى الشمبانيا أيضا ‥ حسن ، ســوف تتذوقينها الليلة يمكنك أن تصعدى ، الآن ، الى فيليب ، وسأتبعك بما لذ وطاب ‥

الفصل الرابع عشر

كان فيليب مســـتيقظا ، فعندما دخلت بهدوء الى حجرة نومه ، وجدته جالسا فى فراشه ومصوبا عينيه نحو الباب ·· وكانت المدفأة ، التى كانت من المفروض أن تخبو منذ ساعات ، مازالت تشتعل بتوهج ·· وكانت الستائر مسحوبة ، وشعاع عريض من ضـــوء القمر يسقط عبر الحجرة على السرير ، **وقال فيليب :**

ــ لقد تأخرت كثيرا !

ــ انك قلت عند « منتصف الليل » ، تذكر ·· اننا الآن فى منتصف الليل تماما !

فنظر الى مسرورا وقال :

ـ منتصف الليل ؟ حقيقى ؟

ـ ما الذى جعلك مستيقظا بهذا الشكل حتى هذه الساعة ؟

ورأيت فنجان الشيكولاته لم يمس ومازال فى مكانه على المنضدة بجانب السرير · **فقلت له :**

ـ أوه ·· أهكذا ؟ انك لم تشرب الشكولاته ·· ألم تشعر بالنعاس ؟

ـ شعرت ، ولكن انشغالى بالحفاظ على اشتعال المـــدفأة جعلنى يقظا ·· و ·· أنا خـــائف الآن ، ولا أستطيع أن أنام !

ـ خائف ؟ لماذا ؟ ماهو الأمر ؟

وجلست على فراشه ، **فقال :**

ـ لقد رأيت أحلاما سيئة !

ـ أوه ياعزيزى ، ياله من شىء بغيض ! أى نوع من الأحلام السيئة ؟!

فقال فيليب :

ـ ناس يدخلون ويتحسسوننى ··

فانتابنى الذهول ، **ولكنى قلت بابتهاج :**

- أوه جسن · انها مجرد أحلام ، على كل حال · والآن اسمع مسيو الكونت ·· طالما أنك لم تنزل للعشاء فى الحفل ، فهل تحب أن يأتى العشاء اليك !

- العشاء ؟ ولكنى قد تعشيت !

فقلت :

- كان هذا منذ ســـاعات ، كما أننى لم أتناول عشائى بعد ، فما رأيك أن تستضيفنا أنا وابن عمك راؤل على وليمة فى منتصف الليل ؟

- وليمة فى منتصف الليل ؟ أوه ، آنسة مارتن !

ثم بدت عليه الريبة ، **وتساءل :**

- هل قلت ابن عمى راؤل ؟!

وفتح الباب بهدوء ، ودخل راؤل حاملا زجاجتين ويتبعه واحد من الجرسونات المؤجرين **بصينية** ·

فقال فيليب :

- اذن ، فهى وليمة منتصف الليل حقا ؟

فقال راؤل وهو يفتح الزجاجة ذات الغطاء الذهبى:

– بالتأكيد !

وانفتح الغطاء مصدرا صوتا كصوت المسدس ، **وأضاف قائلا :**

– وليمة سرية بجانب المدفأة وضوء القمر !

وسكب قليلا من الشمبانيا ·· فقفز فيليب خارج الفراش ، **وقال :**

– هل هذا عصير ليمون ؟

– ليس بالضبط ، ولكنى أحضرت لك عصير ليمون حقيقيا !

وملأ كوبا طويلا بالعصير الأصفر من الزجاجة الأخرى ، وناولها لفيليب ، **وقال :**

– والآن نشرب · قف يافيليب ، اقرع كوبك فى كوبى ·· والآن فى كوب الآنسة مارتن ·· اننا نشرب نخب سعادتنا !

وعندما رفعنا أكوابنا ، كانت نيران المدفأة تتراقص فى مشروبنا الذهبى ·

وحتى بدون تأثير الشمبانيا ، فالوليمة كانت رائعة .. لقد قام راؤل بمحاولة طيبة باحضار « كل شيء » .. وقدم طبقا وراء طبق من الأطعمة الجميلة ، اللذيذة ذات مذاق جميل فى نفس جمال مظهرها .. وأكلت أنا وفيليب والسعادة تشملنا ، بينما جلس راؤل بجانب المدفأة يدخن ويحتسى الشمبانيا ، وقلت :

ـ ان هذا لرائع ، واذا جاءك يافيليب حلم سيىء بعد هذا ، فسوف تستحقه !

فقال راؤل :

ـ أظن أنه قد نام بالفعل .

وتطلعت الى فيليب الذى كان متكورا على السجادة .. ووقف راؤل ، وقال :

ـ هل رأى أحلاما سيئة ؟

ـ انه يقول ذلك .. يقـــول أن أناســـــا يأتون ويتحسسونه وكان خائفا .

وبدا على راؤل التفكير والاهتمام ، وحمل الطفل من فوق السجادة .. كان بجانب الحجرة حيث نجلس فى ظلام دامس ، لا يضيؤه سوى ضوء المدفأة الواهن ،

ويسقط من خلفنا شعاع من ضوء القمر الأبيض عبر السجادة . حمل راؤل الطفل النائم الى فراشه . كان على وشك أن يخطو الى شعاع الضوء ، عندما سقط ظل جديد عبر السجادة ، ثم توقف فى شـــعاع القمر نفسه ..

استدار راؤل متأرجحا ، ووجه فيليب ، الأبيض فى ضوء القمر ، يتأرجح على كتفه .

وسمعنا صوت هيلواز دى فالى **وهى تقول بحدة وعنف :**

ـ راؤل !!! ماذا تفعل هنا ؟ ماذا فى الأمر ؟!

فقال ببطء :

ـ لا شىء !

ـ ماذا ؟ فيليب ؟ .. ماذا حدث له ؟

ـ ياعزيزتى هيلواز .. لا شىء على الاطلاق .. انه نائم !

كانت ممسكة بالســـتارة باحدى يديها ، واتجهت الأخرى الى قلبها بحركة قد شاهدتها من قبل ..

وأعتقدت أنه من الأفضل أن أظهر نفسى ، فنهضت واقفة ٠٠ ولفت نظرها حركة ثوبى الأبيض فى الظلال ، فاستدارت مصدرة صرخة صغيرة **وقالت :**

– أنت هنا ؟ ما الذى يجرى ؟ هل حدث مكروه ؟!

فابتسم راؤل وقال :

– وليمة سرية ، هذا كل شىء ٠ كان فيليب يشعر بالحرمان من عدم المشـــاركة فى الحفل ، فحاولنا أنا والآنسة مارتن أن نشركه ٠ ولقد نام لتوه ٠٠

تطلعت هيلواز دى فالمى حولها ، فسقطت عيناها على الصينية عند المدفأة ، مع الزجاجتين ٠ والأكواب الفارغة والصحون الفضية ، **فقالت فى اندهاش :**

– تقصدان وليمة حقا ؟

قال راؤل وهو يسحب اغطية السرير فوق جســـم فيليب :

– بالطبع ٠ دعينى آخذك الى تحت ثانية يالندا !

تحت ؟ ٠٠ اننى لم أستطع مواجهة كل تلك النظرات الفضولية ٠٠ **لذلك فقد قلت وأنا أشـــعر بشىء من الخجل :**

ـ لا ، شكرا لك · سأذهب الى فراشى الآن ·· تصبحين على خير يامدام · شكرا لك على الرقص ·· انها كانت ليلة ·· لقد استمتعت بالحفل جدا ·

كان وجه المدام عديم اللون فى ضوء القمر · انها لم تكن مطلقا بهذا الجفاء وهذا التباعد ، عندما قالت :

ـ تصبحين على خير يا آنسة مارتن ·

واستدارت وذهبت · وعندئذ سألت راؤل :

ـ هل ترى ياراؤل ؟ انها تنوى طردى بالفعل ·

كان ناظرا وراء هيلواز ، عندما أجاب :

ـ من الأفضل أن أتركك الآن !

أغلق الباب من خلفه ، و سمعته يمشى مهرولا فى الممر وراء هيلواز ، وكأنه يريد اللحاق بها ·

وفى الصباح التالى ، أحضر لى برنارد رسالة الى حجرة الدراسة عند موعد الافطار · بدت كأنها قد كتبت على عجل ،فقرأت :

· عزيزتى ،

لا أستطيع البقاء اليوم كما كنت آمل · وجدت أنى يجب أن أعود الى باريس · اغفرى لى ، وحـــاولى

الا تقلقى بخصوص أى شىء · اذا كان لديك أمر عاجل تريدين أن تخبرينى به ، فيمكنك الاتصال بى تليفونيا بشقتى ، التى أشترك مع صديق لى فيها · الرقم هو ٦٧٠٤٣٢١

سأعود صباح الخميس ·

المخلص

«راؤل»

طويت الرسالة بيدين غير ثابتين ، ورفعت بصرى الى برنارد المنتظـــر · كان يراقبنى باهتمـــام بعينيه السوداوين القاسيتين ، فسألته :

– هل رحل مسيو راؤل بالفعل ؟

– أوه ، نعم يامدموازيل · لقد رحل بســـيارته ليلحق الطائرة المبكرة الى باريس ·

وعندما خرج برنارد من الحجرة تعجبت مرة أخرى ما الذى ترى فيه بيرث الصغيرة الجميلة ·

بدا اليوم طويلا · شعرت بالوحدة بشكل غريب · لقد ذهب راؤل ، وفلوريمون رحل أيضا بعد الافطار ·

وعندما كنت أنا وفيليب فى الخارج نقوم بجولة بعد الظهر المعتادة ، زمجرت سيارة وولت مارة بنا · كان يقودها وليم بليك ، الذى لوح لى بيده بابتهاج ، فرددت عليه بتلويح يدى بشـــغف ، حتى أن فيليب بدا عليه الاندهاش ، **فقال :**

ـ هل هو صديق عزيز عليك ؟

فقلت :

ـ انه انجليزى !

وعند دخولنا عائدين تقابلنا مع ليون دى فالى فى الساحة ، **فقال :**

ـ آه ، فيليب ·· مساء الخير يا آنسة مارتن ·· هل عدتما توا من جولتكما ؟

وابتسمت ، ولم أستطيع أن أرى أى أثر لفتور فى وجهه · يقينا لو كان سيطردنى لما بادر بالقاء التحية علينا بهذه الطريقة اللطيفة !

والتفت الى فيليب ، **وقال :**

ـ وكيف حـــالك اليوم ، بعد الاثارة التى حدثت ليلة أمس ؟

فقال فيليب بعصبية :

– اثارة ؟!

– لقد أخـــبرونى بوليمة منتصـــف الليل التى اقمتموها ٠

فقلت بمثل عصبية فيليب :

– هل تمانع ٠٠ ؟!

– ياعزيزتى ، لماذا أمانع ؟ يا آنســـة مارتن اننا نترك فيليب تحت رعايتك وتصرفك ، كان عطفا منك أن تفكرى فى الطفل فى وقت مسرتك الشخصية ٠ أتعشم أن تكونى قد استمتعت بالرقص ؟

– نعم ، أوه نعم ، بالفعل ! كانت ليلة مدهشة !

– أنا سعيد أن اسمع هذا ٠ أخشى أن تشعرى بأنك غريبة بيننا ، ولكنى أحسب أن راؤل تعهدك واهتم بك !

لم يكن فى صوته الدمث الا استعلام مؤدب ، فقلت :

– نعم ، شكرا لك ، لقد فعل ٠٠ وكيف حال المدام الآن ؟ أنها ليست مريضة ، أليس كذلك ؟

– أوه لا ، مجرد تعب ٠٠ سوف تظهر فى الحفل

الراقص بالقرية الليلة ، لذلك فهى تأخذ قســطا من الراحة الآن ٠

ــ اذن ، فهى لن تنتظرنا فى حجرة الجلوس اليوم كالمعتاد ؟

فابتسم قائلا :

ــ لا ، أعتقد انك لا تستطيعين أن تلتقى بها ، لكن يمكنك أن تلتقى بى بدلا منها !

فتصلب فيليب ، **ولكنى قلت :**

ــ كما ترغب يامسيو ٠٠ فى المكتبة ؟!

فضحك قائلا :

ــ لا ، لا ٠٠ سأجنب فيليب ذلك ٠ حســـــن ، لا تدعينى أعطلك ٠٠

واســـتدار الكرسى المتحرك ، وابتعد ٠٠ وركض فيليب أمامى الى الباب الجانبى فى ارتياح سعيد ٠٠

كانت أحاسيسى مثله أيضا ٠٠ اذن ، من الواضح عدم وجود أى فكرة للاستغناء عنى ، لقد كانت كلها منتخيلاتى الغبية !

الفصل الخامس عشر

مضت بقية اليوم ببطء ، ووضعت فيليب فى فراشه مبكرا ، وعندما انتهى من شرب فنجان الشيكولاته ، ذهبت ممتنة الى فراشى ٠

لا اذكر كيف استيقظت ٠ يبدو أن ذلك حدث بعد نوم عميق ، فأدرت وجهى على الوسادة وتطلعت بعينين جاحظتين نحو الباب ٠ لم أستطع أن أر شيئا ، لكنى سمعت الباب وهو يغلق بهدوء ، ثم سمعت خطوات خفيفة تتحرك عبر السجادة نحو السرير ٠٠

ولامس السرير شىء ما ٠٠ وسمعت تنفسا ،

وبينما كنت أحاول اضاءة النور الملاصق للســـرير ، جاءنى همس مخيف :

ـ لا تضيىء النور ! ٠٠ أنا بيرث يا آنسة ٠

ـ بيرث ؟ ماذا حدث ؟ فيليب ؟ هل حـــدث أى مكروه لفيليب ؟

ـ لا ، لا ! لكنى فكرت أن أحضر اليك لأخبرك ٠٠

وانفجرت فى البكاء وجلست على طرف السرير ٠٠ فتســـللت من فراشى وأغلقت الأبواب بالمفتاح ٠٠ ثم أضأت النور الملاصق للسرير ٠٠ وجلست بيرث واضعة وجهها بين يديها ٠٠

جلست بجانبها ووضعت ذراعى حولها قائلة :

ـ ماذا فى الأمر ؟ هل حدث شىء وقت الرقص ؟

فقالت بصوت منخفض متعجل :

ـ انك تعرفين أننى سأتزوج من برنارد ؟ حسن ، لقد أخذنى الليلة الى الرقص ، وبدأ ٠٠ أوه ، انه كان مخمورا يا آنسة ، وبدأ ٠٠ أنت تعرفين ٠٠

ـ أعرف ٠٠

واستمرت قائلة :

– وفى طريقنا الى البيت بدأ يتكلم ٠ كان يتفاخر بما سنفعله عندما نتزوج ، فقال ، سيكون لدينا مال ، مال وفير ، وسنشترى مزرعة ٠ كان يتحدث بطريقة عنيفة وهو مخمورا تماما لدرجة أننى خفت ٠ وأخبرته بألا يكون عبيطا أو ساذجا فمن أين لشخص مثله أن يحصل على مال يشترى به مزرعة ، وعندئذ قال ٠٠٠٠

– نعم ، ماذا قال؟

– قال : سيكون لدينا مال وفير فيما بعد ، عندما فيليب ٠٠ عندما فيليب ٠٠٠٠

– نعم ، عندما فيليب ماذا ؟

فقالت بيرث :

– يموت ٠٠

– استمرى !

– قال أن مسيو دى فالى قد وعده بالمال عندما يموت فيليب ٠٠

– بيرث ! تقصدين ٠٠ أنه يخطط لـ ٠٠٠ لـ ٠٠٠

ـ نعم يا آنسة !

صمت ·· واستطعت أن أرى العرق يتصبب على وجهها ·

كان هذا كلاما فارغا ·· انه لن يحدث ·· فالقتل شىء يحدث فى الكتب ، لا بين أناس نعرفهم جيدا ·· ولكن جزءا من عقلى كان يعرف أن هذا حقيقى ·· ولقد كان يعرف ذلك من قبل · فقلت بهدوء :

ـ فيليب سيموت فيما بعد ، أقال ذلك ؟ فيما بعد متى ؟

ـ برنارد قال قريبا · جاءت برقية مبكرا هذا الصباح من مسيو هيبوليت ، يقول أنه قادم للبيت ·· وسوف يكون هنا غدا مساء ، ولذلك لابد أن يقوموا بذلك فورا · لقد حاولوا من قبـــل ، يقول برنارد ، ولكن ···

ـ حاولوا ؟ من هم ؟!

ـ عائلة فالى ·· مسيو ومدام و ··· ···

فقلت :

ـ لا ! ·· لا ! ··

فقالت بيرث :

ـ نعم يا آنسة ٠٠ مسيو راؤل !

ـ لا أصدق هذا ، لا أصدق هذا !!! ٠٠ لايمكن ان يكون هذا حقيقى !! لا يمكن !! أعرف ذلك ٠٠ بيرث ، هل تسمعيننى ؟! ٠٠ انه بساطة غير حقيقى ٠٠

ولم تقل شيئا ، ولكنها أشاحت بوجهها ٠٠

لن أصف أفكارى وأحاسيسى خلال الدقائق القليلة التالية ، انها موجعة جدا لى حتى الآن ٠٠ واستطعت بعد وقت أن أفكر بشكل معقول نوعا ما ، وأدركت أن أهم ما فى الموضوع هو فيليب نفسه ٠٠ وتكلمت بصوت ميت ، حتى اننى لم أدرك أنه صوتى :

ـ أنا لا أقول انى أقبل ما يقوله برنارد ، ولكن ٠٠٠ حسن ، أريد أن أسمعه ٠٠ تقولين : « لقد حاولوا من قبل » ٠٠ أعتقد أنك تقصدين الطلقة النارية فى الغابة وافريز الشرفة المخلوع ؟

ـ نعم !

أتذكر وجه مدام دى فالى عندما عدنا أنا وفيليب من الغابة فى ذلك اليوم : كان شاحبا ومتوترا ، كما لو

أنها قد رأت شيئا فظيعا ٠٠ وفى ليلة الشرفة المكسورة : لم تصعد للطابق العلوى لتأخذ الدواء ، ولكن لترى ما قد حدث ٠٠ ولابد لليون دى فالمى أن يكون قد سمع صوت الارتطام من الساحة الأمامية ٠٠ **فقلت :**

ــ من أطلق النار ؟ برنارد نفسه ؟

ــ لا ، كان هذا مسيو راؤل !!

ــ انه يكذب ٠٠ لابد أنه أطلق النار بنفسه ، و ٠٠٠ ولكن هنا رأيت وجهها ، فتوقفت ، وأدركت أنها لابد تحس نفس احساسى السيىء ، **فقلت :**

ــ أوه ، أنا آسفة يابيرث ! حسن ، يمكن أن نقرر فيما بعد من مذنب ومن ليس مذنبـــا ، أما فى الوقت الحاضر فمن الأحوط أن نفترض أن الجميع مشتركون فى المؤامرة ٠ كان راؤل بالتأكيد فى الغابة فى ذلك اليوم ٠٠٠ لقد قال ذلك هو نفسه ٠ ثم صوت نفير الكاديلاك فى المنعطفات ٠ ٠وذلك كان لجعل فيليب يخرج ليلقى حتفه ؟

ــ لا أدرى عما تتحدثين يا آنسة ٠ برنارد لم يقل أى شىء عن النفير !

ـ أوه ؟ حسن ، لا تهتمى بذلك ٠٠ يجب أن نفكر ماذا نفعل ؟

أولا ، كان على أن أرتب أفكارى ٠ حاولت أن أنظر للأمر كله بهدوء وبنظام ، منذ وقت ارسال فيليب الى فالى من قبل هيبوليت الذى لاشك فى أمره ٠٠

وكانت أول خطوة هى التخلص من الشخص الوحيد القريب من فيليب ومحل ثقة هيبوليت ٠٠ مربية الطفل !

وكان لابد من شخص آخر يحل محلها ، فكنت أنا الشخص المثالى ، فتاة بدون أقارب أو أصـــدقاء قد يساعدونها فى حالة وقوع أى مشكلة ٠ فماذا سيكون أفضل من فتاة يتيمة وأجنبية أيضا ؟ اذن لقد كانت غريزتى فى اخفاء أصلى الفرنسى على حق بالفعل !

وهكذا عثروا على وأحضرونى الى فرنسا ٠ ولقد سمحوا لى أن أســـتقر فى فالى ٠ ثم تمت المحاولة ، وبمحض الصدفة ، فشلت : ولم تصب الرصاصة فيليب ٠٠ وكانت المحاولة الثانية أقل تعمدا ، ولكنها أيضا أقل خطرا : لقد تم كسر افريز الشرفة وتركه مخلخلا ، وجاهزا للمرة التالية التى يندفع فيها فيليب خـــارجا الى ذلك الركن ٠ ٠وهذا « الحادث » فشل أيضا ، بسببى ٠٠ واذا كانت أى محـــاولة من هاتين المحـــاولتين قد

نجحت ، فلن يكون هناك أى شك فى جريمة قتل ٠٠٠ وبالتأكيد ، الشخص الوحيد الذى يمكن أن يعتبر مذنبا ، كان هو ليون دى فالى نفسه ٠ وكانت الناس ستتحدث عن « المأساة الفظيعة » ثم ينسونها ٠ ويكون ليون قد امتلك فالى ، فهو محترم بشكل زائد وصاحب أملاك ممتاز ، ولاشك أن أهالى المنطقة سيقتنعون ٠٠ وقالت :

ـ والآن يابيرث ، ماذا بعد ؟ ماذا سيحدث هذه المرة ؟

ـ لا أدرى ٠٠ ولا أعتقد أن برنارد نفسه يعرف ٠ أعتقد أنها لن تكون مهمته هذه المرة ٠٠ لكن لابد من التنفيذ بسرعة ، لأن مسيو هيبوليت قادم ٠ لقد وصلت البرقية مبكرا هذا الصباح ، وبالفعل أزعجت السيد جدا ٠٠

وتنفست شهيقا حادا ، وقالت :

ـ وســـيأتى هيبوليت غدا ؟ اليوم يابيرث ٠ انه اليوم ، هل تدركين ذلك ؟

ـ لماذا ، أوه نعم ، انه كذلك ٠٠ فالساعة الآن تقترب من الواحدة ٠٠ ولكن لا أدرى متى سيحضر مسيو هيبوليت الى هنا ٠ أعتقد أنه لن يكون قبل المساء ٠٠ الى أين ستذهبين ، يا آنسة ؟

ـ لأتأكد من ان فيليب على مايرام ٠

وركضت بخفة عبر الحمام الى حجرة نوم فيليب ، وانحنيت فوق السرير ، وسمعت تنفسه المنتظم ٠ وعدت تاركة الأبواب الفاصلة مفتوحة ، ودخلت الى الفراش مرة أخرى ٠

ـ نعم ، انه نائم ٠٠ لكنك تعلمين أن محاولة أخرى ستتم اليوم ؟ والآن ، تقولين أنه لن يكون برنارد ٠٠ ومسيو راؤل قد ذهب الى باريس ، وبالتالى فلا يمكن أن يكون هو ٠ وأنا على يقين أن مسيو دى فالى سوف يبعد نفسه عن ذلك ، وهكذا لن يبقى سوى المدام ٠٠

فقالت بيرث :

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ أنها هى المدام ؟ بالطبع لا ٠٠ ولكن ٠٠٠

ـ هل أنت متأكدة أن مسيو راؤل قد ذهب الى باريس ؟

فحملقت فيها ، وقلت :

ـ ماذا ؟ تقصدين ٠٠ انه ربما لايزال هنا فى مكان ما ٠٠ مختبئا ؟ لكن سيارته قد ذهبت !

ـ نعم ، انه رحل ٠ انا رأيته ٠ ولكن يمكنه أن يرجع ٠٠

ـ أوه يا الهى ٠٠ ولكنك تعرفين ، لا يمكن أن أصدق أن راؤل مشترك فى هذه المؤامرة بالفعل ٠ واذا كان كذلك ، فلماذا يقيم علاقة معى ؟ فبالتأكيد أن ذلك خطر وغير ضرورى ؟

فقالت بيرث باندهاش :

ـ ربما ، لم يستطع أن يقاوم ، فأنت جميلة جدا ، أليس كذلك ؟ وألبرتين تقول أنهم عندما كانوا فى باريس سمعت ٠٠٠٠

ـ ان البرتين تسمع كثيرا ، أليس كذلك ؟ ولكنى لا أعتقد أن راؤل مثل ذلك ٠٠

ـ حسن يا آنسة ، اذا كان هو ٠٠ قد ارتبط بك ، وهذا ليس من الحيطة ، فربما كان ذلك سبب ضـــيق السيد والمدام ٠٠

ـ أعتقد أنهمـــا كذلك فى البداية ، ولكنهما غير متضايقين الآن ٠ قابلت المسيو بعد ظهر اليوم ، وكان لطيفا معى جدا ٠

– أوه ، ولكنهما كانا متضايقين يا آنسة . البرتين قالت أنهما سيطردانك .. قالت انهما كانا حانقين عليك جدا .

– ولكن هذا لا يعقل يابيرث ! ان عـــلاقتى مع راؤل توطدت جدا ، وطلب منى أن أتزوجه !

– نعم ، أعرف . كل امرىء يعـــرف . البرتين أخبرتنا .. –

وسكتت لمدة ثوانى ، ثم قلت :

– حسن ! حسن اذن ، لابد أن المسيو والمدام قد عرفا .. ومع ذلك ، عندما رأيت المسيو اليوم ، كان لطيفا جدا معى ! وفى ذلك الوقت ، كان قد وصلته برقية هيبوليت ...

ثم قلت ببطء :

– هو والمدام كانا غاضبين منى من قبل ، أعرف ذلك .. وأعتقد أنهما كانا يخططان على طردى .. لكن برقية هيبوليت غيرت كل ذلك . كان عليهما أن يقوما بخطة جديدة وبسرعة ، وتلك الخطة تشملنى .

وبعد صمت طويل ، قالت بيرث ببطء :

ـ ربما يريدان أن يتأكدا من أنك ستظلين هادئة ، اذا ارتبت فى أى شىء ٠

ـ يا الهى ! بالتأكيد أنهما لا يمكن أن يتخيلا أننى ارتاب فى مقتل طفل ، وأسكت ولا أفعل شيئا بخصوص ذلك ؟

ـ ولكن اذا كنت ســـوف تتزوجين راؤل ، وكل شخص يعرف ٠٠٠ ٠٠٠

وتوقفت ، ثم أضافت قائلة :

ـ اذ مات فيليب ، فستكونين كونتيسة فالى يوما ما ٠ واذا كانت البرقية جاءت فعلا قبل حفلة الرقص ٠٠

ـ وماذا تقصدين ؟ ٠ هل تقصدين أنهما قد أعطيانى مبررا للقتل ؟ وأنهما لا يمكنهما أن يغامرا « بحادث » آخر ، بدون وجود شخص يقع عليه اللوم ، فى حالة حدوث خطأ فى الأمور والقاء الناس بالأسئلة ؟ هل هذا ما تقصدين ؟

فقالت بيرث ببساطة :

ـ هل هناك أى سبب آخر ليطلب منك أن تتزوجى منه ؟

فقلت :

– هل هناك أى سبب آخر فعلا ؟

وقمت لألقى نظرة أخرى على فيليب ٠ انه لايزال نائما فى سلام ٠ كان المنزل هادئا ٠٠ وعدت الى بيرث ٠ وقلت :

– أظنك تدركين أن أقل وقت يمكن أن يحدث فيه أى شىء هو الليلة ، الآن ؟ ٠٠ فكل امرىء فى القرية بحفلة الرقص ، فيماعدا مسز سيدون ٠٠ ومسيو دى فالى ٠٠ فالمدام ذهبت الى هناك ٠ أليس كذلك ؟

– نعم ، ولكنها لابد أنها غادرت القرية الآن ، فهى لا تبقى طويلا هناك أبدا ٠ وبرنارد هنا ٠٠ لقد أوصلنى بالسيارة الى هنا ٠٠ انه نائم الآن فى حجرتى ٠٠ أوه ، كان أمرا مفزعا ، الركوب معه مارين بالمنعطفات ، وهو لايزال مخمورا ٠

– اسمعى يابيرث ، هل تبقين مع فيليب حتى أذهب وأتصل بالشرطة تلفيونيا ؟

ـ لا ! لا يجب أن تذهبى الى الشرطة !

ـ ولكن يافتاتى العزيزة ...

ـ لقد جئت لأبلغك ، لأنك كنت طيبة معى . لم أرد أن تدخلى فى أية مشاكل ، لكن لا يجب أن تخبرى أى امرىء عن برنارد ! يمكنك أن تهربى اذا كنت خائفة !

فنظرت اليها باندهاش وقلت :

ـ أهرب ؟

ـ اذا كان ما قلناه حقيقيا ، ومن المحتمــــل أن يتهموك بالقتل !

ـ ولكن يا بيرث ، لا يمكن أن تكونى جـــادة فى اقتراحك هذا .. أهرب وأترك فيليب لهم ؟ لا ، سأتصل بالشرطة الآن ؟

ـ اذا بلغت الشرطة ، فسيأتون ويقابلون السيد . وسوف يصدقونه هو ، لا أنت !

ـ ربما .. ولكن ذلك سوف ينقذ فيليب .

ـ ولكن ماذا تظنين ســـيحدث لى ؟ وبرنارد ؟

واسرتى ؟ ولقد عمل أبى عند عائلة فالمى طيلة حياته ، فأين يذهب عندما يطردوه ؟

فقلت :

ـ حسن جدا ، سأغلق فمى ولن اتكلم · والآن ، من الأفضل أن تذهبى يا بيرث ·· شكرا لك على قدومك وابلاغى ·

وذهبت ·· وتركتنى وحدى مع الظلال ····

١

الفصل السادس عشر

كانت هناك خطة واحدة فقط قد تضمن نجاة فيليب : يجب أن يبعد عن متناول ليون دى فالى ، ويختبىء حتى تأتى المساعدة !

ليس هناك دقيقة واحدة للاستغناء عنها ، فالخدم على وشك المجىء من الرقص ، وعلى أكثر تقدير بين الثالثة والرابعة ٠ واذا كان ولابد من القيام بمحاولة لذلك هذه الليلة ، فلابد ان تتم الآن على الفور ٠٠

واتجهت لارتداء ملابسى ، عندما سمعت صوتا من الممر ٠ وبالرغم من اننى قد تصنت عليه ، لم اتبين فى البداية صوت من هو ٠٠ همس حاد رفيع ٠٠ لابد انه

أعطى اشـــارة تحذير لعقلى ، لأن يدى تحركت الى الضوء الملاصق للفراش وأطفأته ، فى الوقت الذى فتح باب فيليب بســرعة جدا · فعرفت عندئذ ما هى تلك الهمسة الحادة ·· الكرسى المتحرك ·

بقيت فى مكانى كما كنت ، متجمدة ، واحدى يدى مازالت على الضوء · كنت أتنفس بصعوبة · ولو كان قد صدر أى صوت من الحجرة الأخرى لكنت قد انطلقت الى هناك كطلقة البندقية ، ولكن الكرسى المتحرك لم يتحرك من مكانه ·وبقيت ساكنة ومنتظرة ·

لا شىء ·· لا حركة ·· وبعد برهة ، أغلق الباب مرة أخرى بلطف شديد ·· وسمعت صوت عجل الكرسى فى الممر مرة أخرى ·

واعادنى الخوف ثانية الى سريرى · وعندما فتح باب حجرة نومى ، كنت راقدة بهدوء ، وأغطية الفراش من فوقى وحول رقبتى ··

انه لم يدخل ·· انتظر فقط هناك فى صمت ··· وامتدت الثوانى وأصبحت كالسنين ··

لقد ذهب ٠٠ وأغلق الباب من خلفه بلا أدنى صوت ٠٠ وسمعت صوت عجل الكرسى المتحرك وهو يتلاشى فى الممر ٠٠

وبعد ذلك بثوان ، سمعت صوتا خافتا للمصعد ٠ لقد كان يتمم علينا ويتأكد من أننا فى فراشنا ، وكان هذا كل شىء ٠ ولكنه أفصح لى أيضا عما كنت أحتاج لمعرفته : كانت القصة حقيقية ٠

والى حد ما عادت السكينة الى ثانية ٠ فأغلقت الباب بالمفتاح ، ثم أغلقت الستائر وأضأت النور ٠٠ وارتديت ملابسى بســــرعة ، والتقطت معطفى وحذائى المتين ، ومررت من باب الحمام الى حجرة نوم فيليب ٠

كانت الحجرة بها ضوء كاف ، فالستائر الطويلة مفتوحة قليلا ، ومن بينها يسقط ضــوء القمر فى خط ساطع عبر السجادة ، تماما مثلما كان فى الليلة الماضية ٠٠ أغلقت الباب بالمفتاح ثم أحكمت اغلاق النافذة ٠٠ وكان فيليب من خلفى يصدر صوتا خافتا فى نومه ، ونظرت من فوق كتفى نحو الفراش ٠

رأيت ظلا غريبا ، فاستدرت فى جزع مفاجىء ٠٠ لقد جاء شخص كان يسير بطول الشرفة ، وكان يحملق فى من خلال الفتحة التى بين الستائر ٠٠ فوقفت هناك

فى شـــعاع ضوء القمر ، غير قادرة على الحركة ٠٠ وتطلعت أمامى فى عينى هيلواز دى فالمى !

لم تبد أى دهشة لوجودى ٠٠ مجرد أنها اخذت تدفع النافذة ، وكأنها كانت تتوقع أن تجدها مفتوحة ٠

كان من الصعب على أن أرفض ادخالها ، ففتحت النافذة ، وأنا أفكر كيف كنت سأفسر حقيقة وجودى متيقظة ومرتدية ملابسى فى الواحدة والنصف صباحا ، وقلت بكل برود أقدر على اظهاره :

ـ مساء الخير يامدام ٠

ولم تعرنى أى التفات ، ولكنها مشـــت بهدوء الى داخل الحجرة ، ووقفت بالقرب من رأس السرير وتطلعت الى الطفـــل النائم ٠ ٠ثم مدت يدها ببطء شـــديد ، لتحسس على وجهه ٠٠ أنها كانت لمسة رقيقة ، حركة لا معنى لها ٠٠ ولكنى أدركت شيئا ! هذا هو حلم فيليب السيىء ٠ لقد حدث هذا من قبل !

وتحدثت اليها عبر السرير :

ـ ما هذا يامدام ؟! ماذا تريدين ؟!

ولم تجب ٠٠ وبدأت أنا أزمجر حانقة ، ثم توقفت متحيرة ، أراقبها ، ماذا ستفعل ؟

لقد اتجهت نحو المنضدة الصـــغيرة التى بجانب السرير ٠ وتحركت يداها عندئذ فوق الأشياء المختلفة التى على المنضدة ٠٠ أبجورة ، كتاب الفنجان الذى كان فيه شيكولاتة فيليب ، عسكرى دمية ٠٠ وكانت يدها تتحرك بطريقة عشوائية غريبة ، وقبضت على الفنجان ثم رفعته ، فقلت :

ـ مدام دى فالى ٠٠٠٠

فاســـتدارت عندئذ كان وجهها عـديم التعبير ، لا يفصح عن شىء ، وكانت عيناها خاليتين من الانفعال وأثناء تطلعى اليها ، سرت فى كل جســـمى قشعريرة خوف ٠٠

كنت العينان المفتوحتان ، مثل اليدين المتحركتين برقة ٠٠ لقد كانت تمشى وهى نائمة !! فالقلق الذى يثقل على عقلها جعلها تمشى وهى نائمة خلال الليل الى حجـــرة فيليب !! هل يمكن أن أجعلها تتكلم ؟ فقلت :

ـ هيلواز دى فالى ، ردى على ٠٠ كيف ستقتلين فيليب ؟!!

لم تبد أى انتباه ٠٠ ووضعت الفنجان على المنضدة، واستدارت نحو النافذة ٠٠ **وانفجر السؤال من فمى :**

– هل راؤل يساعدك ؟

ولم يجد ذلك فلم أحصل على أى رد منها ٠٠ كانت تسير ومعها أسرارها ، فهى لاتزال حبيسة نومها ٠٠٠ وسحبت الستارة جانبا من أجلها ، فمشت هى بهدوء مارة بى ٠٠ وسارت فى الشـــرفة الى أن اختفت عن بصـــرى ٠٠

لكنها قد أفصحت عن شىء واحد ٠٠ الفنجان ٠٠ فعادت عيناى الى الفنجان الفارغ بجانب فيليب ٠٠ ماذا كان يوجد فى الفنجان مع الشيكولاته ؟

وأيقظته بهدوء ، ففتح عينيه ورآنى ، **فقال :**

– لقد رأيت حلما سيئا آخر !

– أعرف ، ولهذا جئت ٠٠ فيليب ٠٠ هل أنت على مايرام ؟

– نعم ، طبعا !

وسقطت عيناه على ملابسى **فسألنى :**

– لماذا أنت ٠٠٠٠

ــ هل شربت الشيكولاته ؟

فتردد وهو يقول :

ــ لقد سكبتها ، وتخلصت منها ٠

ــ ماذا ؟ هل كانت مقرفة أو أى شىء ؟

ــ لا ، على الأقل ، لا أعرف ٠٠ لقد تركوا الزجاجة ليلة أمس ، فعثرت عليها واحتفظت بها ٠٠ أننى لم أخبرك ٠

فقلت وأنا لا أفهم :

ــ زجاجة ؟

ــ نعم ، عصير الليمون اللذيذ ٠ لقد شربته عوضا عن ذلك ٠

ــ انك لم تقل شيئا أبدا عندما كنت أذهب لأحضر لك الشيكولاته ٠

فقال فيليب :

ــ حسن ، لم أرد أن أؤذى شعورك ، فأنت دائما تعملين الشيكولاتة ٠٠ ماذا فى الأمر ؟

– لا شيء ٠٠ لا شيء ٠ أوه ، فيليب !

– هل أنت حانقة على ؟

– لا ، لست حانقة عليك ٠٠ والآن ، اسمع ياحبيبي هل علمت أن عمك هيبوليت سيأتى البيت غدا ٠٠ اليوم ؟

فرأيت الفرحة تلمع فى وجهه وهو يقول :

– لماذا يعود ؟ من قال لك ؟ متى يمكننا أن نذهب ونراه ؟

فقلت :

– فكرت أننا نذهب فى الحال ٠٠ فكلما أسرعنا ، كان أفضل ٠

وتطلعت اليه وكأننى قلت أعقل شىء فى الدنيا ، فتراخت عيناى أمام حملقته الثابتة ٠ وتساءل :

– هل تقصدين أننا سنذهب الى فيلا أنا الآن ؟

– نعم ، لن يكون هناك بعد ، ولكنى فكرت ٠٠

– هل عمى ليون يعرف ؟

– فيليب ، ياعزيزى ، لا أتوقع منك أن تفهم كل هذا ، ولكن أريدك أن تثق بى ، وتعال معى الآن ٠

ـ انك تأخذينى بعيدا عنه ؟

ـ نعم !

وانتظرت منه أن يقول : لماذا ؟ ·· ولكنه لم يفعل ، وقال :

ـ ان عمى ليون يكرهنى · انه يتمنى أن أموت ·· فقلت بلطف :

ـ فيليب ، ياحبيبى ، أخشى أنه يرغب فى ايذائك · انا لا أحبه كثيرا ، أيضا ·· أعتقد بأن كلينا سنكون أفضل بعيدا عن هنا ··

مدفع بأغطية الفراش بعيدا عنه ، وخلع بيجامته فورا ، وقال :

ـ عندما أطلق على النار فى الغابة ، لم يكن ذلك مصادفة ؟

لم يكن هناك حاجة للتظاهر ، فقلت :

ـ لا ، لم يكن ذلك مصادفة !

وناولته ملابسه ·

ـ لقد حاول أن يقتلنى ؟!

فاضفت قائلة :

– نعم ، ولكن لا تخاف يافيليب !

– اننى لست خائفا ٠

وكانت عيناه – مثل عيون أســـرة فالى – تلمعان بشراسة حين قال :

– لقد كنت خائفا لمدة طويلة ، ولكن لم أعرف لماذا ٠ والآن عرفت ، ولم أعد خائفا !

وعثرت على سترته الصوفية وقلت له :

– لا ترتدى حذاءك الآن ٠٠ احمله ، حتى نخرج من القصر !

فالتقطه ، وتطلع الى فى ريبة ، وقال :

– لا يمكننا أن نذهب الى فيلا أنا حتى يكون عمى هيبوليت هناك ٠ فهناك سيبحثون عنا أول مايبحثون ٠

– أعرف ٠ هل تذكر مسيو بليك ، الانجليزى ؟ حســـن ، ان لديه كوخا فى غـابات ديودونى ، حيث يقضى الليل أحيـانا ، أنا أعرف أنه هناك الليلة ، لأنى رأيت ضوءه يلمع كالنجمة قبل أن أذهب للفراش ٠

سوف نذهب الى هناك ، وسـيهتم بأمرنا حتى يعود عمك · والآن ، يجب أن نكون هادئين جدا جدا ··!

ووقفت بجوار الباب وأخذت أتسمع · ولم أستطع أن أسمع شيئا · وخلف الباب امتد المنزل الفسـيح العظيم مظلما و خاليا تقريبا ·· وكانت مدام دى فالى نائمة بالتأكيد ، وكان برنارد مخمورا ، وليون نفسه ·· كان منتظرا فى الطابق الأسفل هناك لاكتشاف الوفاة ·· كان ليون نفسه عاجزا ··

وزحفنا فى سكون على طول الممرات الطويلة المظلمة، وهبطنا على السلالم الى الباب الجانبى ·· وكان مغلقا بالمفتاح · لابد أن باب المطبخ قد ترك مفتوحا ليدخل منه الخدم ، ولكنى لم أجرؤ على استكشاف ذلك ·· ودار المفتاح الثقيل بسهولة وبهدوء ، ولكن لم يزل الباب مستعصيا على الفتح · لابد أنه محكم من فوق أيضا ·· فانسابت يداى فوق الخشب ، فعثرت على المزلاج فوق يدى ، فسحبته ·

فتحرك بصـوت يشبه الصرخة ·· وبدا الصوت يستمر ، ويستمر ·· وشددت الباب بيدين مرتعشتين ، منصتة طوال الوقت لصوت الكرسى المتحرك ·· ولكن

لم يزل الباب لا يتحرك .. قد يكون قادما فى اى لحظة الآن ، ليجدنا فى هذا الركن المعتم .. فهمس فيليب :

– هنا ، لقد أحضرت كشافى المضىء .

وانحنى نحو مزلاج آخر عند أسفل الباب ، وسحبه الى أعلى بهدوء ، فانفتح الباب ..

وخرجنا الى هواء الليل ..

الفصل السابع عشر

والآن ، كيف سنعثر على كوخ وليم بليك فى الغابة ؟ فمن نافذتى بقصر فالمى ، لاحظت أن الضوء يبدو قريبا من ممر عريض مستقيم يمتد خلال أشجار الصنوبر من مكان ما قرب جسر فالمى · تمكنت أنا وفيليب أن نعبر الجسر ·· وانحرفنا قليلا نحو اليمين ، وكنا على يقين أننا سنصل الى ممر مفتوح ، ثم يمكننا عندئذ أن نتبعه صاعدين حتى نصل الكوخ ·

كان هذا يبدو سهلا ، ولكنه كان فى الحقيقة تسلقا طويلا وشاقا جدا ·· ولم أجرؤ على استخدام كشاف

فيليب بالقرب من الطريق ، ولا فى الممر المفتوح فيما بعد ، حيث يمكن رؤيته من قصر فالى ·

وفى الغابة كان الظلام دامسا ·· ولقد اعتادت عيوننا على الظلا موأصبحنا قادرين على شق طريقنا بين الأشجار ، ولكننا لم نستطع رؤية الفروع الميتة الجافة الملقاة على الأرض · ·فاصطدمنا بها وسقطنا فوقها ، وتغطت سيقاننا بالجروح والكدمات · ومع ذلك ، عندما كنا نتسلق ونتوغل فى الغابة ونبتعد عن القصر ، كنت أشعر بمزيد من الأمن والسعادة · وكان هذا الجانب البرى الموحش من الجبل ليس مكانا للخوف : بل انها فالى بأضوائها وترفها التى تراها من هنا ·

كان ظنى فى محله ؛ فبعد حوالى عشرين دقيقة من تسلقنا المؤلم لذلك الممر شديد الانحدار ، وصلنا الى ممر مفتوح ·· لم يكن ممرا بالفعل ، ولكنه كان قطعا واسعا مستقيما متخللا الأشجار ، ربما كان المقصود منه أن يخدم كفاصل للنيران اذا شب حريق فى الغابة · وهنا ، أيضا ، كانت الأرض مغطاة بالأفرع الميتة الجافة، ولكننا كنا نستطيع أن نرى أفضل على الأقل ·

والتفتنا مرة لنتطلع الى قصر فالى · فكان يطفو

على الجانب البعيد من الوادى شاحبا فى ضوء القمر فوق غاباته المعتمة ‥ وكان هناك ضوء واحد يلمع فى جانبه ‥ فلايزال ليون دى فالى منتظرا ‥

وعانينا فى الصعود متسلقين ، مع التوقف مرارا وتكرارا لأخذ قسط من الراحة ٠ وأخيرا رأينا الكوخ ٠ كان صغيرا ومربع الشكل ، وله سطح منحدر ، وكان كله مصنوعا من كتل أشجار الصنوبر ٠ كان المصباح مشتعلا عندئذ ‥ ولكن ‥ بالطبع ، سيكون وليم نائما فى ذلك الوقت ٠

واستدرت لألقى نظرة أخيرة على قصر فالى ، فبدا بعيدا وغريبا ٠ اننى لن أعود هناك ثانية ‥ وامتلأت عيناى بالدموع ٠

وبدلا من وجود ضوء واحد فى القصر ، بدا العديد من الأضواء ٠ فرفعت ، بحنق ، يدى لأمسح دموعى ٠

ولكن ليس للدموع دخل فى ذلك ٠ فكان هناك ثلاثة اضواء ، بالفعل ، تلمع من جانب القصـــر ٠ واثناء حملقتى اضيئت نافذة أخرى ٠ ثم أخرى ‥ حجرة النوم ، ثم حجرة جلوسى ‥ ثم حجرة الدراسة ‥ وبعد ذلك رايت اضواء سـيارة قادمة من الســاحة الخارجية ٠ لقد تم اكتشاف هروبنا !

انه لم ينتظر حتى الصـــباح · لقد دخل حجراتنا مرة أخرى ، وكانت فالى قد استيقظت · ولكن أثناء مراقبتى ، انطفأت الأضواء واحدا تلو الآخر ، تاركين الضوء المنفرد فقط ، بينما كانت أضواء السيارة تتلوى هابطة المنعطفات ·

وهكذا لم يوقظ أهل البيت · لقد أرسل شخص ما لطاردتنا ، وبعد ذلك ذهب هو لينتظر بجانب التليفون · فاستدرت وركضت تحت عتمة أشجار الصنوبر ·

كان فيليب يطرق باب الكوخ · وبعد لحظة ستنتهى كل المشكلة ، سوف نسمع صوت أقدام الشاب الانجليزى وبعدها سنكون بالداخل فى أمان ·

ومرت نصف دقيقة ·· كانت الغابة ســـاكنة ، والهواء البارد يلفح ظهرى ·· ومرت دقيقة ·· بلاصوت ·· لابد أنه كان مستغرقا فى النوم ، فقلت :

– دعنا نرى اذا كنا نستطيع الدخول ·

لم يكن الباب موصدا بالمفتاح، فناديت ونحن نهم بالدخول :

– مستر بليك ! هل أنت هنا ؟

فارتد صوتنا ، وساد صمت أجوف لمنزل خاو ٠ لقد كان بالتأكيد ، موجودا هنا من برهة وجيزة ، اذ كان حطب الموقد لايزال مشتعلا ، ورائحة الطعام عالقة فى الهواء ٠٠ لابد أنه كان يعمل هنا ، وقام باعداد وجبة طعام لنفسه ، ثم قرر بعد ذلك أن ينزل الى مقهى كوك هاردى ٠

كان فى الكوخ حجرة واحدة ، بها منضدة خشبية متينة وبعض الخزانات وكرسيان خشبيان وسرير يبدو صلدا فى أحد الأركان ، مع وجود صندوق تحته ٠ وفى ركن آخر ، كان هناك سلم خشبى يؤدى الى باب صغير فى السقف ٠ وقال فيليب فى صوت متعب خافت :

ـ ألا نستطيع البقاء هنا ؟

ـ نعم ، بالطبع ٠٠

لابد أن السيارة ستهبط منقبة الطريق الى فيلا أنا ٠ وهم لن يبحثوا عنا هنا مطلقا ٠ وقلت لفيليب :

ـ يمكننا أن نتسلق هذا السلم الخشبى ٠ سأصعد وألقى نظرة ٠

ومن حسن الحظ كان الباب فى السقف سهل الفتح ، فدفعته وأنرت الكشاف حول الحجرة التى أسفل السطح

·· كانت مستخدمة كحجرة خزين ، حيث كانت هناك أكوام من الصناديق والعلب الصفيح والحبال ·· والشىء الذى بعث الراحة الى نفسى أن الحجرة بدت جافة ونظيفة تماما ··

ونزلت ثانية ·· وكما تصورت كانت هناك بطاطين اضافية فى الصندوق الموجود تحت السرير ، فأرسلت فيليب الى أعلى السلم الخشبى وناولته البطاطين ، واحدة تلو الأخرى ، ثم أدرت الكشاف حول الحجرة كلها ، لأتأكد من أننا لم نترك أى أثر لوجودنا ، ثم تسلقت مرة أخرى لأنضم الى فيليب فى حجرة الخزين · كانت البطاطين ضرورية فى هذا الجو البارد ، فتدثرنا بها ورقدنا شاكرين لننام

غط فيليب فى النوم فى الحال ·· ورقدت متصنتة لآلاف الأصوات المنبعثة من أعماق السكون الذى يلفنا · اننا فى أمان هنا ، أمان تام ·· واستطعت أن أنام ··

وانطلق صوت فتح الباب فى ذلك السكون النائم مثل طلقة البندقية ··

انه وليم بليك ، بالطبع ·· لابد أنه هو ، ولابد أنى نمت أكثر مما ظننت ، والآن قد أصبح الصباح ،

وهاهو قد عاد ·· ورفعت رأسي لأسمع ، ولكنى لم أقم بأية حركة أخرى ··

وخطا الرجل القادم خطوتين أو ثلاثا ، ثم توقف تحتنا ، واستطعت أن أسمعه يتنفس بشدة ، كما لو أنه كان يركض ·· ووقف ساكنا تماما لمدة طويلة ·

وانتظرت للأصوات المطمئنة لاشعال المصباح ، أو لصوت الحطب وهو يحترق فى الموقد ·· ولكن لم يكن هناك سوى السكون والتنفس السريع · وبعد ذلك ، حتى التنفس انقطع !

أعتقد أن تنفسى قد انقطع أنا أيضا · عرفت عندئذ أنه ليس وليم بليك · كان الرجل من تحتنا يمسـك بتنفسه ليتسمع لنا ، ليلتقط أدنى صوت قد نصدره ·

لقد تعقبنا وتصيدنا فى مخبأنا ·· لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيا ، ولكنه حدث · لقد وصل صائدنا بالفعل · !

ترك تنفسه على سجيته ثانية ، وتحرك عبر أرضية الحجرة ·· وعندئذ سـمعت صوت المصباح الزيتى « القنديل » وهو يشعله ، ثم صوت سباب ، لأنه على ما أظن ، انطفأ القنديل ثانية · وبعدها بثوان جاء صوت اشتعال عود كبريت آخر ·

لا يمكن أن يكون الصباح قد أتى بعد ، ولم يكن بالطبع وليم بليك ، فالسباب والشـــتائم كانت باللغة الفرنسية ، وفى صوت اعتقدت أنى أعرفه ·· انه صوت برنارد !

واشتعل المصباح عندئذ ·· واســـتطعت أن أرى خيوطا دقيقة من الضوء بين ألواح السقف الخشبية · كان يتجول بطريقة بطيئة متعمدة ، فكانت مخيفة أكثر من الخطوات المســـرعة ·· ربما لا يعرف كنه هذه الحجرة ، وفكرت ، ربما لا يلاحظ السلم الخشبى ·· هذا اذا لم يستيقظ فيليب أو تصدر عنه أية حركة ·

مازال الرجل يتنفس بصوت مرتفع · وعندئذ جاءت خطوات الأقدام تحت السلم الخشبى ، وسمعته يتحرك قليلا حيث قبض بيديه عليه · نعم ، لقد عرف برنارد أننا هنا · وكان التنفس العالى ليس مرجعه الركض ، ولكن الاثارة ··

وهنا جاء صوت مفاجىء لخطوات سريعة خارج الباب · فسب برنارد مرة أخرى وفتح الباب ، ثم قال صوت غريب :

ـ من هنا ؟ أوه ، برنارد ، أهذا أنت ؟ ماذا تفعل هنا ؟!

وتحرك السلم الخشبى مرة أخرى حيث أفلته برنارد، وقال :

– هاللو جول !

لم يكن يبدو مخمورا ، ولكن صـــوته كان غليظا ثابت تماما :

– عساى أسألك نفس السؤال ٠ ما الذى أحضرك الى هنا، فى هذه الساعة ؟

وأغلق الشخص الآخر الباب ودخل الحجرة ٠٠ وقال :

– من واجبات حرس الليل ٠٠ فمنذ اضـــطرام حريق الغابة فى الشهر الماضى ونحن علينا أن نفعل ذلك ٠٠ وهانذا أقطع الغابة غدوا ورواحا طوال الليل البائس ٠٠ ولقد تزوجت منذ أسبوعين فقط !

فضحك برنارد قائلا :

– حظ عاثر أيها الزميل القديم !

– دعنا نضع بعض الحطب فى الموقد ٠٠ آه ، هذا أفضل ! والآن ، ماذا تفعل هنا ؟ اذا كنت تريد الشاب الانجليزى ، فهو تحت عند مقهى كوك هاردى الليلة ٠

فقال برنارد ، متحدثا ببطء وبوضوح :

ـ لا ، ليس الشاب الانجليزى ٠

ـ لا ؟ ماذا ، اذن ؟ لابد أن لديك سببا للمجىء الى هنا فى منتصف الليل ، وأنا أحب أعرف هذا السبب ٠٠ ان هذا المكان من أملاك ديودونى ، تعرف ، وأنا مسئول عنها !

فقال برنارد :

ـ حسن ٠ هنا أمور غريبة تحدث الليلة فى قصر فالمى ٠ هل سمعت عن مربية فيليب الصغير الانجليزية٠ اسمها مارتن ؟

ـهذه الفتاة الصغيرة الجميلة التى كانت تطارد مسيو راؤل ؟ ماذا فعلت ؟

ـ لقد اختفت ، هذا ما قد فعلته !

ـ حسن ، ليس من الصعب معرفة مكانها ، أليس كذلك ؟ ومسيو راؤل ٠٠

انسى مسـيو راؤل الآن ٠٠ لقد أخذت الصبى معها !

ـ ماذا ؟ فيليب الصغير ؟ هل أنت متأكد ؟

ـ يا للعنة ، بالطبع نحن متأكدون ! صعدت المدام منذ ساعات قليلة الى حجرة الولد لتلقى عليه نظرة ٠٠ فلم يكن هناك ! والمربية قد ذهبت أيضا ! فتكدرت المدام بشكل فظيع ٠ ولذلك أبلغنى السيد أن أخرج وأبحث عنهما ٠٠ لقد نزلت الى ثونون ، ولكن ، ياللعنة ، لم يكن هناك أثر لهما ٠٠ ولا يبدو أن السيد نفسه كان قلقا ، فهما لابد أن يظهرا قريبا جدا على أية حال ٠

ـ ولكن لماذا سيصعدان الى هنا ؟

ـ انها فكرة السيدة ٠ يبدو أن الفتاة قد شوهدت فى ثونون مع الشاب الانجليزى ٠ حسن ، انها ليست هنا بالتأكيد ، لذلك أعتقدأن من الأفضل لى أن أعود ٠ هل ستأتى معى ؟

لم يجب جول مباشرة ، ولكنه قال بعد برهة :

ـ تلك الفتاة مارتن ٠٠ كان هناك كلام ٠٠ كلام كثير !

ولم يبد برنارد أى اهتمام ٠ وقال جول بعد لحظة :

ـ الناس يقولون ٠٠ أن مسيو راؤل ينوى الزواج منها ٠

فقال برنارد :

– أوه ، هذا ·· حسن ، انه حقيقى ·

– يا الهى ، حقيقى ؟ وهكذا قد أوقعته فى شباكها ، الأحمق المسكين ·· انها ليست على شاكلته ·

فقال برنارد ، وهو مايزال يتحدث بهذه الطـــريقة البطيئة الغريبة :

– انه لم يـــكن أحمق أبدا · اذا كان يريد أن يتزوجها · حسن ، فهذا ما يريده · والآن دعنا نذهب، هل ممكن ؟

– برنارد ·· وتلك الفتاة ··· ···

كان هناك شىء ما مزعج بخصوص صوت جول · كان يبدو متعجلا وخجلا بعض الشىء · وقال برنارد بصبر فارغ :

– حسن ؟

– هل أنت متأكد أنها ·· أنها لا تقوم بما يؤذى الصبى ؟

ـ ما الذى تقصده ؟

ـ حسن ، الناس يقولون أنها لديها ٠٠ طموحات٠ لماذا تقف طموحاتها عند الزواج من مســيو راؤل ؟ ماذا الذى يعرفه أى امرىء عنهــا ، على أية حال ؟ من هى ؟ !

ـ انها يتيمة انجليزية ٠٠ من أسرة طيبة ، على ما أعتقد ٠٠ هذا كل ما أعرفه ٠ ولكنها تبدو شغوفة بالصبى !

ـ أن الصبى لن يجعلها المدام كونتيسة فالى ٠

برهة سكون ، بعدها ضحك برنارد قائلا :

ـ كلما أسرعت فى العودة الى فراشك كان أفضل ٠٠ ان هواء الليل يعطيك تهيؤات سأقوم بتوصيلك حتى سوبيرو ٠٠ ما رأيك ؟ لقد تركت السيارة تحت عند نهاية الممر ٠

وتحــرك فيليب بجانبى وهو نائم ، وقال شيئا ، فقال جول بحدة :

ـ ما هذا ؟

ـ ماذا ؟

– سمعت شيئا · تقريبا يشبه الصوت ·

فضحك برنارد تحتنا تماما ، ضـحكته القصـيرة الجامدة وقال :

– فأر ياعزيزى جول · حسن ، دعنا نذهب ·· يمكنك أن تذهب أمامى ، وسأعود لأطفىء المصـباح وأقفل الباب · سوف أتبعك ··

فقال جول بحزم :

– سوف انتظرك هنا ··

– ايه ؟ أوه ، حسن جدا ·· هذا كل شىء ··

وذهبا ·· لقد سمعت الباب يفتح ويقفل ، ثم سمعت صوتيهما فى الخارج يزداد خفوتا الى أن التهمه السكون ·· ورقدت ثانية ، وأنا أرتعش كأنى أصبت بالحمى !

كأن الراحة المفاجئة بعد كل هذا الرعب قد اتعبتنى ·· وكنت طوال المحادثة قد فتحت أذنى لأحصل على كل كلمة · وكنت أحاول أن أخمن نوايا الرجلين لقد دار عقلى كالرحى فى ارتباك · وبدا لى فى احدى اللحظات أننى يجب أن أصرخ منادية على جول ومظهرة نفسى له ، فهو ليس موظفا فى فالمى · وهو على الأقل ، سوف

ينقذنا من أى ضرر قد ينويه برنارد · ولكنى فى اللحظة التالية ، وجدت نفسى أستمع لجول يتهمنى واستمع لبرنارد وهو يدافع عنى ! وما قاله برنارد له كان مدهشا جدا ، أيضا ··

ليون دى فالمى لم يكن قلقا ، كنت معـــروفة بأنى مغرمة بفيليب ، زواجى من راؤل كان أمرا مفروغا منه ومقبولا · لقد كانت محادثة غريبة جدا حقا · لقد كان لدى شعور بأن هناك شيئا غير طبيعى بخصوصها ·· وكانت طريقة برنارد البطيئة الحريصـــة غير طبيعية أيضا ··

رقدت هناك فى هدوء ، مستمتعة بأمننا وبالسكون المخيم فى ديودونى · وتحرك فيليب مرة أخرى وقال :

ـ مدموازيل ؟

ثم عاد لينام · فابتسمت ، واعتقدت انه اذا كان قد تكلم بهذا الوصوع من قبل ، لكان برنارد قد سمعه · وعلىكل ، فلقد كان واقفا تحتنا مباشرة ، بينما كان جول قد ابتعد ···

وتجمدت فجأة · لقد سمعه برنارد بالتأكيد ··

بالطبع قد سمعه برنارد · لقد عرف برنارد أننا كنا هنا · لقد عرف بالفعل أننى كنت أتصنت لكل كلمة قالها ، ولا عجب أن المجادثة قد بدت غير طبيعية ·

لم يناسبه أن يعثر علينا أثناء وجود جول هنا · ولهذا كان السبب ـ رغم أنه فوجىء بوجود جول وهو فى طريقه الى مخبأنا ـ أنه لم يتم بحثه · ولهذا كان السبب أنه قد رفض أن « يسمع » ما قد سمعه جول ، ولماذا حاول أن يجعل جول يذهب أمامه ، بينما تخلف هو لينقض علينا · ولكنه لم ينجح فى ذلك · ولهذا فهو سيعود ·· بمفرده · ·

قد يأخذ جول فى سيارته الى بيته ويدعى أنه ذاهب الى فالمىَ ، وعندئذ سوف يعود ثانية بأقصى سرعة يقدر عليها ، لأن الليل سيتحول بعد قليل الى صباح ، والليلة ونهار الغد هو كل الوقت الذى لديهم ··

لم أبحث الفكرة أكثر من ذلك ، ولم أرغب فى وضعها فى كلمات تركتها كما هى كخوف عديم الشكل ، يدق فى جسدى ، ولم أستطع تصور كيفية تنفيذهم لذلك ، ولكن فى ذلك الجحر المعتم عند قمة الغابة المنعزلة ، كان يبدو أى شىء ممكنا ·· وجاءت الى ذهنى صورة مفاجئة

لليون دى فالى ، وهو يراقبنا من خلف تلك النافذة الساطعة عبر الوادى ، يقتنصـــنا من أعلى وهو على كرسيه المتحرك ، وكان ذلك بواسطة شعاع ســـحرى يقتفى أثرنا عبر الغابة · ليون دى فالى ، ظل ملتو ضخم ، يطول حتى يطولنا أينما كنا لماذا فكرت فى أنى أقدر على الفرار منه ؟

كانت الدموع الســـخيفة تنهمر على وجهى ·· فانحنيت لأوقظ فيليب ·· !

الفصل الثامن عشر

استيقظ على الفور ، متساءلا :

– مدموازيل ؟ هل جاء الصباح ؟

– نعم ، انهض يا حبيبى · لابد أن نذهب !

– وهو كذلك · هل أنت تبكين يامدموازيل ؟

– ياإله السماوات ، لا ! والآن ، هيا بنا !

فقفز فى الحال ، وفى وقت قصير جدا كنا قد هبطنا السلم الخشبى · كان الفجر يكاد يبزغ فى الخارج ، وأثناء ارتداء فيليب حذائه تطلعت فى خزانات ورفوف وليم بليك ، وقلت فى ابتهاج :

ـ خبز ! علبة سردين ٠٠ كعك ٠٠ وشيكولاته ! هذا جميل !

ـ هل ستتناولين الافطار الآن ؟

ـ مع الأسف لا ٠٠ من الأفضل الا ننتظر هنا حتى يعود مستر بليك ٠٠ سوف نتجه صوب ثونون !

والقيت نظرة خاطفة حول الكوخ ، وقلت :

ـ كل شىء على مايرام ، هيا بنا نذهب !

اذا كان برنارد قد أخذ جول الى سوبيرو ، فلن يكون قد عاد بعد ؟ ولكنى تطلعت من النـــافذة عبر الأشجار المعتمة بخوف ٠٠ لا شىء يتحرك هناك ٠٠

تسللنا خارجين من الكوخ وتسلقنا الى أن وصلنا قمة التل ٠ كان قلبى يدق بعنف ، ولكن الغابة كانت هادئة تماما ، فيماعدا أصوات الطيور التى تطير بين قمم الأشجار ٠ وعندما وصلنا فوق قمة الهضبة شعرت بأمان اكثر ٠ وكان الدرب العريض مستقيما وخاليا ، فركضنا عبره لنحتمى تحت الأشجار ٠

وبعد برهة جئنا الى تل صخرى بين الأشجار ، وهنا سمعت صوتا لمياه جارية ، وصرخ فيليب قائلا :

— آنسة مارتن ، كهف ! هناك كهف !

— وينبوع ماء • أظن أننا سنتناول افطارنا هنا •

لم يكن كهفا حقيقيا ، بل مجرد ركنا جافا تحت جدار معلق من الصخور ، لكنه منحنا وقاء من رطوبة الغابة ، والأهم من ذلك •• هيأ لنا شعورا بالطمأنينة • وأثناء تناولنا الطعام ، بزغت الشـــمس فصبغت قمم الأشجار باللون الذهبى !

قد يبدو أمرا سخيفا أن أقول ، انى استمتعت بذلك الصباح • كانت الغابة آية فى الجمال فى ضوء شـــمس الصباح ، وكنا أحرارا •• وكنا فى طريقنا الى ثونون ، ومسيو هيبوليت سيأتى الليلة • وفى هذا الصباح الجميل بدا شبحا ليون دى فالى وبرنارد الشـــريرين بعيدين وغير حقيقيين •

لم نسرع • كان لدينا متسع من الوقت وكان كلانا متعبا • وقبل منتصف النهار بقليل وصلنا الى الطريق الذى كنت آمل العثور عليه •• وانعطف الطـــريق فى الاتجاه الذى أردنا الذهاب اليه ، مرتفعا فوق طريق الوادى الرئيسى • وأثناء هبوطنا منه سمعنا صـــوت سيارة • فقلت بسرعة :

ـ اختبىء يافيليب !

وفى لحظة كنا فوق الضفة المنزلقة وبين ستر من الشجيرات عند القمة ·· وعندما ألقينا أنفسنا منطرحين أرضـــا ، ظهرت الكاديلاك من تحتنا · كانت النافذة مفتوحة فرأيت وجهه · وتأرجحت السيارة مبتعدة ، وهمس فيليب قائلا :

ـ هذا ابن عمى راؤل !

ـ نعم ·

ـ ظننت أنه فى باريس !

ـ وأنا أيضا ·

ـ الا نستطيع ·· أليس فى امكانه أن يساعدنا ؟

ـ لا أدرى يافيليب ··

ومرت لحظات سكون ، ثم قال فيليب فى اندهاش :

ـ ابن عمى راؤل ؟ ابن عمى راؤل ، أيضا ؟ لا تثقين فيه يامدموازيل ؟

فقلت :

ـ نعم ··

ثم قلت بطريقة هوجاء :

– لا !

– ولكن لماذا ؟

– فيليب ، من فضلك ، لا أستطيع ..

وأشحت بصرى بعيدا عنه للحظة ، ثم قلت :

– ألا ترى ، اننا لا نستطيع أن نجازف بأى شكل من الأشكال . مهما كنا متأكدين ، فعلينا أن نكون .. فعلينا أن نكون متأكدين .. ألا ترى ذلك ؟

اذا رأى فيليب أى خطأ فى هذه الملاحظة السخيفة ، فهو لم يظهر ذلك .. ومد يده بخجل ولمس يدى .

ورقدنا هناك بين شجرتين صغيرتين . كان عقلى مملوءا براؤل .. لم أستطع ، بكل ما فى الكلمة من معنى .. لم أستطع أن أقبل أنه كان حقا يشترك فى المؤامرة مع الآخرين . كان يمكن لكل شىء قاله وفعله أن يكون له تفسير برىء . أو هكذا قلت لنفسى .. لم يكن يعلم بالمحاولات الخاصة بالحصـــول على مربية لا تستطيع التحدث باللغة الفرنسية ، لقد بدا مصدوما مثلى فى حادث اطلاق النار فى الغابة ، واسئلته اللاذعة

عن وليم بليك ، لعلها كانت بسبب الغيرة ، وليس ضيقا من أن اليتيمة التى « بلا صديق » لديها صديق انجليزى ذو مظهر قوى فى المنطقة ، وصوت نفير السيارة ذاك الذى أخرج فيليب الى الشرفة قد يكون محض مصادفة ٠٠ ان برنارد لم يتحدث عنه ٠ أما بالنسبة لقول برنارد لبيرث أن راؤل هو الذى أطلق النار على فيليب ٠٠٠ حسن ، ربما برنارد لم يرد أن يظهر نفسه أمام بيرث كقاتل ٠

كانت الأفكار تدور وتدور فى عقلى ٠ وقلت لنفسى ، ليس من الصالح ، ومن أجل انقاذ فيليب يجب على أن أفترض بأن راؤل مذنبا ٠

همس فيليب فى أذنى قائلا :

ـ يوجد شخص ما فوق قمة التل خلفنا ٠ لقد جاء لتوه من الغابة ٠ أظن أنه برنارد ٠٠ هل هو فيهـا أيضا ؟!

فأومأت ، ثم رفعت رأسى بحذر ٠٠ انه برنارد فعلا ! ٠٠ لقد كان فوقنا ٠٠ على بعد مائتى متر ، وكان يتطلع الى المنحدر الذى تحته ٠٠ لم يكن هناك حاجة لأخبر فيليب أن يظل ساكنا ، فكلانا رقد ساكنا كالأرنب ٠٠ ومرت اللحظات ٠ كان يتطلع نحونا ٠

كان قادما بسرعة هابطا التل فى اتجاهنا . أظن أن الأرنب يظل ساكنا أثناء اقتراب الصياد على أمل أنه لم يره .. وظللنا ساكنين !

لقد قطع نصف المسافة مبطئا ســـرعته ، عندما سمعت الكاديلاك تعود مرة أخرى . وتوقفت قريبا منا ، وانطلق نفيرها مرتين ، ورأيت راؤل يرفع يده ، فغير برنارد الاتجاه وسار مسرعا هابطا الى السيارة .. قال راؤل شيئا ، فهز برنارد رأسه ، ثم أشار الى جانب التل الذى من فوقنا ، ثم ركب بجانب راؤل .. وسارت الكاديلاك ببطء من تحتنا .

وبعد برهة وجيزة نهضت قائلة :

ـ تعال ، هيا بنا نبحث عن مكان نتنـــاول فيه غداءنا بعيدا عن الطريق .

وبعد أن تناولنا طعامنا ، ذهبنا الى داخل الغابة ثانية . ولم نلتقى بأحد على الاطلاق . وبعد الظهر خرجنا من تحت الأشجار الى مساحة فضاء مسطحة مغطاة بالحشائش والعشب الأخضر المريح للعين .. وهناك أخيرا ، ليس بعيدا عن الشمال منا ، رأينا المياه الزرقاء المتلألئة لبحيرة جنيف .

ولم تكن أسطح منازل ثونون تبعد من تحتنا أكثر من كيلومترين ، **فقال فيليب :**

ـ أنا أعرف هذا المكان · لقد جئت الى هنا مع عمى !

ـ هل تتذكر الطريق الى ثونون ؟

ـ نعم ، بالطبع · هناك ممر هابط أعرفه ·

فقلت :

ـ حسن ، اذن ســوف نذهب الى فيلا أنا هذا المساء ، وننتظر عمك · والآن دعنا ننام قليلا ·

أستيقظت عند أول نسمة مســاء باردة ، ورأيت الشمس على وشك المغيب خلف الجبال ، فنهضت على قدمى **وقلت :**

ـ الآن ، أرنى ممرك يافيليب !

تذكر الممر تماما ، وبعد نصف ساعة كنا نسير فى شوارع ضيقة ، فيها أناس من حولنا ، ولكن لم يعرنا أحد منهم أى انتباه ·

قام فيليب بالارشاد بكل ثقة طول الطريق ، وأثناء

سيرنا فى أحد المنعطفات فتح باب مطعم صغير فجأة ، فخرجت منه رائحة سماوية لبخار طعام ساخن ، فتوقفنا ونظر كل منا للآخر ، فقلت :

ـ حسن ، أننا لمحظوظين حتى الآن ٠

ودخلت مع فيليب الى الضوء والدفء ٠

طلبنا طعامنا وأكلناه بسعادة بالغة ٠ ولا أحد فى المكان المزدحم كان يبدى أدنى اهتمام بنا ٠

كان هناك تليفون فى المطعم ، فذهبت لأتصل بمقهى كوك هاردى ٠

ـ أريد أن أحدث مسيو بليك من فضلك ٠

ـ من ؟

لم يبد الصوت فى الطرف الآخر من الخط أى ود ٠

ـ مسيو بليك ٠ الشـــاب الانجليزى ٠ هل هو موجود ؟

استطعت أن أسمع الرجل الذى فى الطرف الآخر يقول شيئا لشخص آخر بجانبه ، ثم قال لى :

ـ لا ، انه ليس هنا ٠

ثم بدت على صوته الريبة وهو يسأل :

ـ من الذى يتكلم ؟

ـ هل من المحتمل أن يأتى الليلة ؟

ـ ربما ·· من أين تتكلمين ؟

اذا لم أجب ، فقد يقتفون أثر المـــكالمة ، ثم قد يتصلوا بفالى ، و ·· و لم أتوقف لأفكر ، بل قلت :

ـ من ايفيان ، مقهى ماريان · من فضلك أخبر مستر بليك أننى سأتصل به فيما بعد ··

ووضعت السماعة وحملقت فى تعاسة فى التليفون · ·· ترى أين وليم بليك ؟! اذا وصلته رسالتى ، فقد يدرك أنى أحتاج لمساعدة ، ويأتى مباشرة الى ايفيان · كنت ، لا أدرى لماذا ، متأكدة من رغبة وليم بليك فى مساعدتى ؟!

الفصل التاسع عشر

كانت فيلا أنا تقع مباشرة على شـــاطىء بحيرة جنيف ٠٠ كانت واحدة بين صف من بيوت فخمة ثرية تحف بجانب البحـيرة ، ويؤدى اليها طريق ضـــــيق منخفض بعض الشىء عن الطريق الرئيسى ٠٠ وكانت معظم المنازل تشمخ وسط حدائق كبيرة مكتظة بالأشجار وتحميها عن الطريق جدران عالية وبوابات كبيرة ٠

كان الظلام دامسا عندما وصلنا فيلا أنا ٠٠ وكانت البوابات الحديدية الثقيلة مغلقة ، وكان هناك ضـــوء يلمع من خلفها ٠٠ انه منزل مربع صـــغير يقع وراء البوابات مباشرة ، **وقال فيليب :**

ـ ان مدبرة المنزل تعيش هنا هى وزوجها ٠

فسألته :

ـ هل تريد أن تذهب اليها حالا ؟

ـ لا ، فهى ستتصل بعمى ليون ، أليس كذلك ؟

ـ أكيد ٠ هل توجد طريقة أخرى للدخول ؟

ـ يمكنك الدخول من شاطىء البحيرة ! ٠٠ ان الحديقة تمتد حتى هناك ، حيث توجد حظيرة المراكب ، ولكنى لا أعرف الطريق الهابط المؤدى الى البحيرة ٠

ـ سوف نبحث عنه !

وفعلنا ٠٠ وبعد مسافة من الطريق وصلنا الى ممر ضيق بين حديقتين ، فتبعناه هابطين الى أن وصلنا أخيرا الى حافة الماء ٠٠

لم يظهر القمر ولا النجوم فى تلك الليلة ، وكان الضباب يجثم هنا وهناك فوق البحيرة ٠٠ وشـــققنا طريقنا على طول الشاطىء الصخرى ولم يكن هناك أى صوت سوى حركة الماء اللطيفة على الأحجار ٠

كانت حظيرة المراكب عبارة عن مبنى صغيرة ، له

طابقان ‥ كان قائما فوق الماء ‥ مطلا على ضـــفة منحدرة تتخللها الأشجار ، **وسأل فيليب :**

– هل سندخل ؟

– ليس بعد ‥ أريد أن ألقى نظرة على المنزل ‥ لعل عمك قد حضر بالفعل ·

تسلقنا الضفة الزلقة وزحفنا برفق فوق الحشائش، ثم سرنا تحت الأشجار الكبيرة · وعندما اقتربنا أكثر ، رأيت أن المنزل يطل على البحيرة وبه ساحة أمامية وطريق عريض للسيارات بجانبه ‥ ولم نســتطع أن نرى أى ضوء من أى نافذة ‥ **وقلت برفق :**

– مع الأسف ، انه لم يصل بعد !

وعندما أصبحنا فى مستوى الساحة الأمامية تقريبا **قلت :**

– ما هذا الضوء الساطع خلف الشجيرات ؟

– انه خارج الباب الأمامى ‥ هناك سيارة !

كانت السيارة تقف خارج البوابة ‥ورأينا خيالا يخرج من خلف المنزل ويسرع فى اتجاه البوابة **وهمس فيليب قائلا :**

ـ انها مدبرة المنزل ، انا لا أحبها كثيرا ٠

وسمعنا صـــوت فتح البوابة الحديدية الثقيلة ، ودخول السيارة ٠ ووقفت بعيدا وراء الشـــجيزات ، وتنفس فيليب وهو يقول :

ـ عمى هيبوليت !

عندئذ تحدث صوت الرجل فى الظلام ، فأمسكت بانفاسى ثم قلت :

ـ لا ٠٠ هذا راؤل !

وسمعت مدبرة المنزل تقول :

ـ لا يامسيو ٠٠ لا شىء يامسيو ٠٠ ولا يوجد أى أثر لهما ؟

فقال بايجاز :

ـ لا أثر ٠ هل أنت متأكدة أنهما لم يحضرا الى هنا ؟ هل الباب الخلفى مغلق ؟

ـ لا يامسيو ٠ ولكنى متأكدة أنهما ليسا هنا ٠

فقال :

– على كل ، لابد أن ألقى نظرة ٠٠

وسمعت باب السيارة يغلق ، ثم سمعت وقع خطواته على طريق السيارات ، فهمست قائلة :

– التزم بهذه الشجرة ، وقف خلفها ٠ فقد يوجه أى ضوء نحونا ٠٠

وعندما توقفت عن الحديث ، أضيئت نوافذ حجرة الجلوس ، وسطع الضوء عبر الساحة ٠٠ انتظرنا فى الظلام ، نراقب اضاءة حجرة بعد أخرى ثم اعتامها ثانيا ٠ كان يمر بكل حجرة فى المنزل ٠ وعندما انتهى من ذلك ، ظلت النوافذ المطلة على الساحة هى الوحيدة المضاءة ٠٠ وجاء الى أحد النوافذ الطويلة ، وفتحها وخرج منها ٠٠ وامتد ظله الطويل عبر الساحة ، فاقتربت من جزع الشجرة أكثر ٠ ولم أستطع أن أراه من مكانى ، كنت أرى ظله فقط ٠

وفجأة اختفى ٠٠ وسمعت سيارة أخرى على الطريق ، وتأرجحت الأضواء عند البوابة ، وقال صوت راؤل :

– برنارد ؟

– مسيو ؟

كان برنارد قادما حول ناصية المنزل ..

وقال راؤل ، بصوته الجامد السريع لمدبرة المنزل :

ـ ألا يوجد أى أثر ؟

ـ أبدا يامسيو . ذهبت الى الكوخ ، ولكنهما ليسا هناك !

ـ ربما ذهبا للبحث عن الشاب الانجليزى . هل اكتشفت أين هو ؟

ـ لقد خرج طول اليوم مع مجموعة من الرجال الى الغابة ، ولم يعد بعد . ولكنى اتصلت الآن ، وأبلغونى بأنها قد اتصلت به فى مقهى كوك هاردى ، منذ خمس وأربعين دقيقة .. انها ....

ـ يا الهى ! من أين كانت تتكلم ؟ هل فكر الأغبياء فى السؤال ؟

ـ نعم ، بالفعل ياسيدى.. لقد سمعوا كل شىء عنها من جول ، تدرى ، أنه ....

– ومن أين كانت تتكلم ؟!

– من مقهى ماريان ، فى ايفيان ٠ انهم قالوا ٠٠٠

– اذن ، فهى لا يمكن أن تكون مع الشاب الانجليزى حتى الآن ٠٠ سوف أذهب الى ايفيان فوراً ٠٠ يمكنك أن تتبعنى ٠٠ لابد أن نعثر عليهما !

واختفت الأصوات حول ناصية المنزل ، وبعدها بثوان ذهبت الـــكاديلاك ٠٠ لابد أن مدبرة المنزل قد خرجت مرة أخرى ، لأننى سمعت برنارد يتكلم معها ٠٠ ولم أستطع أن أتبين ماقاله ، ولكنى سمعتها ترد قائلة :

– قالوا أنه لابد أنه يأتى حوالى الثانية عشرة ٠ وبعدها ذهب برنارد ، أيضا ٠٠ فهمس فيليب :

– انه قادم حوالى الثانية عشرة ٠٠ هل سمعت ؟

– نعم ، لابد أنها حوالى التاسعة الآن ٠٠ علينا أن ننتظر ثلاث ساعات أخرى ٠ ٠ولقد ذهبا مندفعين الى ايفيان ٠٠ هيا بنا نذهب ونغلق على أنفسنا فى حظيرة المراكب !

أبرز فيليب المفتاح ، وتقدم الطريق الى الحجرة التى فوق المراكب ٠٠ فأشعلت الكشاف لأرى مافيها ٠٠

كانت حجرة صغيرة منفرة ، مملوءة بأدوات مهجورة لرياضـــات الصـيف التى تكومت عليها الأتربة ، **وقال فيليب وهو مكتئب بعض الشىء :**

ـ ماذا سنفعل حتى الساعة الثانية عشرة ؟

ـ ننام ، على ما أعتقد ٠٠

ـ نعم ٠٠ أعرف ، سأنام فى المركب !

وسحب شيئًا ما أصفر اللون من بين كومة أدوات اللعب المطاطية القديمة ٠ **فسألته :**

ـ هل هذا مركب بالفعل ؟

ـ نعم ، سوف ترين !

وبحث عن منفاخ ، وبدأ ينفخه بقدمه ، **فقلت :**

ـ أوه ، انه مدهش يافيليب !

وبدأ الشىء المطاطى عديم الشكل يتحول الى مركب صغير بداخله مكان يستطيع أن يسعنا نحن الاثنين ٠

وغط فيليب فى النوم على الفور ، ولكنى كنت غير مرتاحة ، فلم أســتطع النوم ٠ وزحفت الدقائق ببطء

شديد ، وأصبحت أشعر بالبرد أكثر وأكثر ٠٠ وعند الساعة الثانية عشرة الا ربعا قلت :

– دعنا نخرج من هنا ٠ مارأيك ؟

كانت النوافذ لازالت معتمة ٠٠ ولا يمكن ان يكون قد جاء بعد الى هنا ٠ ولكن مازالت نافذة الســـاحة الأمامية مفتوحة ، فدخلنا منها ٠

كانت حجرة الجلوس تبدو ضخمة فى ضوء كشافنا الصغير ٠ وكان الأثاث مكسورا بملاءات بيضاء مانعة للغبار ٠ وهمست قائلة :

– هل يوجد تليفون هنا ؟

وقادنى الى قاعة مرتفعة ، فوق سلم جميل فخم ويؤدى اليها ممر عريض ، ثم قال فيليب :

– هذه هى حجرة المكتب ٠

كانت هذه الحجرة دافئة بالتاكيد ، فسلطت الكشاف عليها وقلت :

– الى أين يؤدى هذا الباب ؟

ـ الى حجـرة جلوس أخـــرى ، أكبر ، انها لا تستخدم الآن !

وفتحت الباب ٠ وكان الأثاث فى هذه الحجـــرة أيضا عليه أغطية الغبار من فوقه ٠٠ فعبرت السجادة وتوقفت عند شىء يبدو مثل كنبة ، ورفعت ملاءة الغبار وسلطتها على الوسائد الحريرية التى تحتها ، ثم ناديت على فيليب قائلة :

ـ فيليب ، اذا كان لابد أن نختبىء لأى سبب ، فهذا يبدو مكانا طيبا ٠٠ تحت ملاءة الغبار !

وتطلعت الى ساعتى ٠٠ الثانية عشرة الا خمس دقائق ٠٠ كانت احدى النوافذ تطل على الطريق الذى تدخل فيه السيارات ٠ ولا يوجد أى أثر لها ٠٠ ذهبت الى مكتب هيبوليت والتقطت سماعة التليفون ، وحاولت مرة أخرى أن أتصل بوليم فى مقهاه ، وجاءنى صـــوت رجل :

ـ مقهى كوك هاردى !

انه ليس نفس الصوت السابق ، فقلت بشغف :

ـ وليم ؟ هل هذا أنت ياعزيزى ؟ أنا لندا ٠٠ !

ـ لندا ؟ أعتقد أن هناك خطأ ما ٠٠

— أنا ٠٠ أليس هذا وليم ؟ أوه ياالسخفى ٠ أنا آسفة يامسيو ٠٠ هل يمكن أن تحضره لى ، لو سمحت ؟

— طبعا يامدموازيل ٠٠ ولكن وليم من ؟

— أوه ، وليم بليك ، الشاب الانجليزى ٠٠ هل هو موجود ؟

— نعم ، انه هنا ٠٠ سأحضره لك !

وسمعته يضحك أثناء ابتعاده ٠٠ وتساءلت ماذا سوف يقول لوليم ٠ وقال لى وليم وفى صوته ريبة وعدم تأكد :

— أنا بليك ٠ من أنت ، من فضلك ؟

— أنا آسفة اذا كنت قد سببت لك اية مشاكل ٠٠ أنا لندا مارتن !

— أوه ٠ انك أنت ٠ ٠الساقى قال أنك فتاتى ، ولم أستطيع أن أخمن ٠٠ هل أنت بخير ! والصبى ٠ ؟!

— بحق السماء ! هل يسمعك أحد ياوليم ؟

— ماذا ؟ أوه ، نعم ، أظن أنهم يستطيعون ٠ ولكنى لا أعتقد أنهم يعرفون اللغة الانجليزية ٠٠

ـ حسن ، كن حريصا جدا ولا تجعلهم يسمعون ٠ أنا ٠٠ أنا فى حاجة لمساعدة ٠٠

فقال بهدوء :

ـ بالطبع ٠٠ لقد سمعت القصة التى يقولونها عنك هنا ، وكنت على امل أن ٠ ٠متوقعا أن تتصلى بى ٠٠ ماذا أستطيع أن أقوم به ؟

فقلت فى امتنان :

ـ أود ، وليم ٠٠ أسمع ، لا أستطيع أن اشرح الآن ٠ اننا فى أمان ٠٠ ولكن ٠٠ سوف أكون ممتنة جدا جدا اذا أتيت حالا ٠٠ ليس هناك خطر الآن ربما ســـتحدث مشاكل ٠٠ أنا أعرف أنى أطلب الـكثير ، ولكن ٠٠٠

فقال وليم ببساطة :

ـ اخبرينى أين أنت ، وسوف أحضر ٠٠ هل أنت فى ايفيان ؟

ـ لا ، لا ٠٠ اذن لقد أخبروك أننى اتصلت ؟

ـ نعم ، لقد عدت لتوى من ايفيان ٠٠ انهم لم يتذكروك فى مقهى ماريان ٠

ـ أوه ، انا آسفة ! هل شاهدت راؤل دى فالى هناك ؟

ـ انا لا أعرفه ٠٠ هل هو يبحث عنك ، أيضا ؟

ـ نعم !

ـ أوه ، كنت أعتقد أنك سوف ٠٠ قال أحدهم ٠٠ وتوقف دون أن يكمل ٠٠

ـ مهما كانت القصة التى سمعتها ، فهى ليست حقيقية ٠ اننا وحدنا ٠٠٠

فقال وليم بابتهاج :

ـ أوه ٠٠ آه ٠٠ نعم ، حسنى ، اخبرينى أين أنت الآن ، وسوف أحضر فوراً ٠٠

وشرحت له كيف يصل الى فيلا أنا وأنهيت المكالمة ٠ وبمجرد أن وضعت سماعة التليفون سمعت صوتسيارة تدخل عبر البوابة ، وأمسك فيليب يدى وشد عليها قائلا :

ـ هاهو !

فقلت وأنا أرتعد :

ـ حمدا لله ، لقد انتهى الأمر ٠

وأسرعت راكضة فى الممر وفيليب من خلفى ٠

وتوقفت عند قمة السلالم ٠ لم تكن أنوار القاعة مضاءة ، وكان الباب الأمامى مفتوحا ، ووقف رجل عند المدخل ، واحدى يديه مرفوعة لادارة مفتاح النور ٠

استطعت أن أرى الظل على ضوء المصباح الخلفى : كان رجلا طويلا متين البنيان ، يقف ساكنا تماما ، كأنه يتسمع ٠

أقلعت فى هبوط السلالم ، وكانت قدماى لا تصدران أى صوت على السجادة السميكة ٠٠ ورآنى ، فرفع رأسه وقال :

ـ هذا هو أنت !!

كان هذا كل شىء ، ولكننى تسمرت وكأنه قد أطلق على النار ٠٠ وأردت للحظة مجنونة أن أستدير وأجرى ولكنى لم استطع الحركة ٠ وقلت فى صوت لم أعرفه :

ـ راؤل ؟!!

ـ نعم !

واضيئت الأنوار ، وتطلعت اليه عبر القاعة الخالية ٠٠ وقد نسيت كل شىء عن فيليب وعن هيبوليت وعن

وليم بليك المندفع قادما من سوبيرو ، لم أستطع أن آرى شيئا سوى الرجل الواقف هناك رافعا بصره نحوى ·

وأغلق الباب من خلفه · كان شاحب اللون جدا ، وكانت عيناه فى صلابة الأحجار · كان يبدو شبيها بليون دى فالى ·

ـ انه هنا ؟ فيليب ؟!

واستطعت سماع الحنق فى صوته ·

عندئذ رآه عند قمة السلالم · وفى ثانية كان يعبر القاعة ويركض صاعدا السلالم · وبطريقة عمياء سبقته ووقفت على قمة الســـلالم أمامه واســـتدرت لأواجهه، وصرخت ، رافعة يدى بلا جدوى ، لأمنع راؤل :

ـ اجرى يافيليب اجرى !

وتوقف حيث كان ، تحتى بثلاث درجات · لم يكن يتطلع الى فيليب · كان يتطلع الى ، وقال :

ـ فهمت !

وأنا أيضا · فهمت ماقد فعلته فى صدمتى وغبائى · وفهمت النظرة التى ظهرت على وجهه ، كانت نظرة

كبرياء مريرة تحبس الحنق وكل احساس آخر ٠ وعرفت أنني قد حطمت عالمي بيدي ٠٠ **وقال بثبات شديد :**

ـ عندما وصلت فالمي هذا الصباح أخبرني والدى أنك قد ذهبت ٠ قال انه اعتقد أنك اتصلت بي ٠٠ كان هناك سببا واحدا فقط أستطعت أن أفكر فيه لعدم اتصالك بي تليفونيا : وهو أن مكروها قد حدث لك ٠ وعندما قلت ذلك لأبي ، أقسم بأنه لن يلحق بك أي أذى ٠٠ ولم أصدقه !

كنت أبكي في صمت ٠٠ ولم أستطع النظر اليه ٠ **وواصل راؤل حديثه :**

ـ أخبرته عندئذ أنني نويت أن أجعلك زوجة لي ، وانه اذا حدث أي شيء لك أو للصبي ، فسوف أقتله ٠٠٠ أبي ٠٠٠ بيدي ٠٠

ونظرت اليه عندئذ **وقلت :**

ـ راؤل ٠٠ !!

ولكني لم أستطع الكلام ٠٠ **فقال ببطء :**

ـ نعم ، اعتقد أني عنيت ذلك بالفعل !!

الفصل العشرون

لم يسمع أحد منا السـيارة الأخرى ‥ وعندما تأرجح باب القاعة مفتوحا ليسـمح لدخول شخصين ‥ رجل وأمرة ‥ قفزنا نحن الاثنان ‥ كان الرجل غريبا بالنسبة لى ، وكانت المرأة هى هيلواز دى فالمى ! ‥ لم يرفعا بصرهما الينا ، لأن مدبرة المنزل ظهرت فى هذه اللحظة ، وقالت مرحبة :

– مسيو ، مرحبا ! أه ، كم أنا سعيدة ...

وقطعت كلامها فجأة ، أثناء تطلعها الى هيلواز ، ثم قالت :

ـ أوه .. هل المدام مريضة ؟!

لاحظت عندئذ أن هيلواز كانت متعلقـــة بذراع هيبوليت ، وكأنها فى حاجة لمساندة ... وقال هيبوليت :

ـ مسيو راؤل هنا ؟

ـ لا ، ليس بعد ياسيدى . انه قال ..

ـ ولكن سيارته فى الخارج ..

استدار راؤل وقال :

ـ مساء الخير ياعمى .

فزعت مـــدبرة المنزل وتطلعت اليه فى اندهاش ، وقالت هيلواز فى رعب مرسوم على وجهها :

ـ راؤل !!

ثم رأتنى خلفه ، فصرخت :

ـ آنسة مارتن !!

نظر الى هيبوليت بدون تعبير ، وأعطى ايمـــاءة صغيرة الى راؤل وسأله :

ـ عثرت عليهما ؟ هل فيليب هنا أيضا ؟

– نعم ، انه هنا !

فقالت هيلواز :

– سالما .. **ومعاف** .. ؟!

كان صوت راؤل جافا جدا **وهو يقول :**

– **نعم ياهيلواز** ، سالما .. **كان** مع الآنسة **مارتن** !

وقال هيبوليت :

– اعتقد من الأفضل أن نتحدث ونناقش هذا الأمر بهدوء . دعونا نصـــعد الى حجرة المكتب . **تعالى** ياعزيزتى هيلواز !

وساعدها فى الصعود على السلالم ..

لم يتطلع الى أحد . كنت ظلا ، ولست شخصا حقيقيا .. لا شىء سيحدث لى الآن . كنت سالمة ، وتمنيت لو كنت قد مت ..

وعندما وصـــلنا حجرة المكتب اتجهت الى الباب المؤدى الى حجرة الجلوس **وقلت :**

– فيليب ؟ كل شىء على مايرام ، **يمكنك** أن تأتى .. عمك **هيبوليت هنا** !

ولسبب او لآخر اتجه الآخرون ايضا الى حجرة الجلوس الباردة · لقد رفع هيبوليت الغطاء من فوق الكنبة ، وجلس واضـعا احدى يديه حول فيليب ·· ووقف راؤل مستندا على المدفأة · وجلست هيلواز على كرسى صغير مغطى بحرير ذهبى ، وسـقطت ملاءة الغبار التى كانت تغطيه عند قدميهـا · كانت تبدو متعبة ·

جلست مبتعدة عنهم قدر الامكان · كان هناك حديث

سيتم بينهم ·· حسن ، دعيهم يجرونه ، عائلة فالى هؤلاء ·· ولم يعد لى أى شأن بذلك !

ورفعت رأسى وتطلعت اليهم ، وهم جالسين فى هذه الحجرة الجميلة الميتة · كان هيبوليت يتحدث برقة مع فيليب · وعلى وجهه ، ايضا ، كان يحمل شكل عائلة فالى بوضوح قوى : كان نسخة أصغر والطف من ليون ·· واستطعت أن أرى نفس القوة الجامدة فيه ، بجانب اللطافة ··

قال لراؤل بصوته الهادىء :

ـ هيلواز قابلتنى عند الطـائرة ·· لقد اخبرتنى بقصة غريبة نوعا ما ··

فقال راؤل :

– من الأفضل أن تخبرنى هذه القصة ٠ ٠ أريد أن أعرف أى شكل من القصص قدمت لك ٠

فأصدرت هيلواز صوتا خافتا ٠٠ **وقال هيبوليت :**

– ياعزيزى راؤل ٠٠

فقال راؤل :ـ

– انتبهى ، من الأفضـــــل لنا اذا قلنا الحقيقة ببساطة ٠٠ تعرفين ياهيلواز ، كان أبى أمينا تماما معى هذا الصباح ٠٠ لذلك فلا فائدة من التظاهر أكثر من ذلك ٠ لماذا لا تقولين لهيبوليت الحقيقة ؟

ولم تحر جوابا ، ولكنها غاصت أكثر فى كرسيها ٠ وراقبها راؤل لبرهة بدون تعبير ، **ثم قال :**

– حسن ، اذا كانت لن تتكلم ، فمن الأفضل أن أخبرك بنفسى ٠

فقال هيبوليت :

– نعم ٠ أعتقد أن عليك ذلك ٠ فحاليا ، لا شىء واضح ٠٠ لقد اتصلت بى تليفونيا فى أثينا مساء الاثنين لتطلب منى أن أعود للبيت ، لأنك كنت قلقا على فيليب ٠٠ تحدثت عن حوادث ، وصممت على أن فيليب فى خطر

بشكل أو بآخر · وقلت أيضا شيئا ما غير واضح تماما عن مـربية فيليب ·· وهيلواز ، أيضا ، تحدثت عنها الليلة ·· وبشكل غير واضح أيضا · وفهمت أن هذه هى الفتاة المعنية ·

فقال راؤل :

ـ يمكنك أن تنسى مربية فيليب ·

(يقصدنى أنا ·· انه حتى لم يتطلع الى)

ـ ان القصة تبدأ وتنتهى بوالدى ·· ان الذى يجب أن تعرفه ياعمى هو الآتى : أخوك ·· بمساعدة ، أو على الأقل بمعرفة ، زوجته ·· قد حاول منذ وقت مضى قتل فيليب !!

أصدرت هيلواز أنينا خافتا ، ورأيت الطفل ينظر اليها · فقلت فى صوت جامد خافت :

ـ فيليب عمره تسع سنوات فقط ·· لقد مر بالكثير اليوم · أقترح أن تسمحوا لى أن آخذه تحت الى مدبرة المنزل !

فقفز الجميع وكأن واحـــدا من الكراسى المغطاة بالملاءات البيضاء قد تكلم ، ثم قال هيبوليت :

– بالطبع لابد أن ينزل للطابق السفلى · ولكنى أفضل أن تبقى أنت هنا لو سمحت ·· دق الجرس ، من فضلك يا راؤل !

فأطاع راؤل ، وظهر خادم عجوز فى الحال ، **فقال هيبوليت :**

– جاستون ، من فضلك اصطحب السيد فيليب الى الطابق الأســـفل ، وأحضر له شيئا يأكله · وجهز له حجرة ·· الحجرة الصغيرة التالية لحجرتى ، على ما أعتقد ·· فيليب ·· جاستون سوف يعتنى بأمرك !

وقفز فيليب ، مبتسما ، وركض الى جاستون وأخذ يده ·· وأغلق الباب من خلفهما ··

وعاد هيبوليت مرة أخرى الى راؤل ، **وقال :**

– حسن ، من الأفضل أن تستمر فى **قصـــتك** ·· وأنصحك أن تتأكد من الحقائق · انه أخى ، تذكر !

فقال راؤل بخشونة :

– وهو أبى أيضا ·· أما بخصوص حقائقى ، فأنا ليس لدى الكثير ، ولكن يمكنك معرفتها · حسن ، أنت تعرف خلفية القصة · اذا لم يولد فيليب على الاطلاق ،

لكان أبى يمتلك فالى ، التى يحبها حبا غير عادى ٠ وعندما لم يتزوج أخوه الأكبر ٠٠ وبالطبع ، كان أكبر بكثير من أبى ٠٠ كان متأكدا أن فالى ستكون فى يوم ما ملكه ٠٠ ولذلك استخدم دخله من عزبته الخاصة فى بلفين ، من أجل فالى ٠٠ لقد قمت بادارة شئون بلفين منذ كنت فى التاسعة عشرة ، وأعرف كيف كان يأخذ بشكل ثابت كل دخلها ٠٠ ولقد تنازعت أنا وأبى على ذلك مرات عديدة ٠ ومهما كان ، فان بلفين ستكون ملكى أيضا ، ولم أكن على يقين من أن ايتين لن يكون له ولد ٠٠

فقال هيبوليت :

ـ أعرف ٠ ليون لن يسمع الكلام أبدا ٠٠

فقال راؤل :

ـ حسن ، وفى النهاية تزوج ايتين فعلا ، وأنجب فيليب ٠ فكانت النتيجة الفورية أن دخل بلفين قد أعيد مرة أخرى الى حيث يجب أن يكون ، وكانت وظيفتى أن أحاول اعادة بناء المكان ثانية ٠٠ لابد أن أقول أنى استمتعت بالكفاح ٠٠ ولكن فى العام الماضى مات ايتين ٠٠ وفى الحـــال بدأ فالى فى أخذ المال من بلفين مرة أخـــرى ٠٠

رفع هيبوليت بصره قائلا :

– بهذه السرعة ؟

– نعم · أرى أنك تفهم ما يعنيه ذلك · لابد أنه قرر عندئذ أن أمرا ما يجب أن يجرى بخصوص فيليب · وهناك أحد عشر سنة قبل أن يستلم الطفل الأملاك ·· وقد تسنح الفرصة ·

فقال هيبوليت بقسوة وبحدة :

– تأكد من الحقائق التى تقولها ·

– انى كذلك · سأوفر الوقت والازعاج اذا أخبرتك الآن أن أبى قد اعترف بنيته فى قتل فيليب !

ومرت برهة صمت طويلة · وبدا هيبوليت فجأة متعبا جدا ، وقال :

– حسن جدا · سأقبل ذلك · لمن اعترف بهذا ؟

– لى ·· لا تعبأ ، انه مازال مجرد أمر عائلى · تحرك هيبوليت فى كرسيه وقال :

– فهمت · وهكذا ذهبت أنا الى اليونان وتخليت عن فيليب ··

فقال راؤل فى ثبات :

ــ نعم · بالطبع لم أدرك عندئذ معنى التغيير فى بلفين · فالمرء لا يتوقع أن يكون أبوه قاتلا · كنت فى حيرة من أمرى وحانقا لا أكثر · وأصبح بيننا شجار دائم ، وعندما عدت الى فالى فى بداية ابريل ، فكرت فى ان أعرف كيف تسير أمور فيليب هناك ·· انه لم يكن أبدا منزلا طيبا للاطفال ·· ولكن الأمور كانت تبدو على مايرام ، ثم وقع فى اليوم الثانى حادث خطير ·

واستمر فى اطلاع هيبوليت عن اطلاق النار فى الغابة ·· فبدا على هيبوليت انزعاج شديد ، وحملقت هيلواز فى الأرض ·· ورأيت أن الحرير الذهبى الرقيق لذراع الكرسى قد تمزق تحت أظافرها ، فقال راؤل :

ــ وحتى عندئذ ، لم أشك فيما يجرى · فالمرء لا يفكر بهذه الطريقة طول الوقت ·

ــ لكنك شككت بما فيه الكفاية حتى جعلك الشك تعود ثانية فى عيد الفصح ؟!

كان راؤل مشغولا فى اشـــعال سيجارة ، وبعدها قال :

– لم يكن الشـــك ، مع ذلك ، هو الذى أعادنى ثانية ٠٠ ولم يكن حتى ليلة حفلة عيد الفصح ، أننى رأيت فعلا شيئا أقلقنى ٠ ولكن فى تلك الليلة ، كان هناك أمران ٠ أولا ، أخبرتنى الآنسة مارتن بوقوع حادث آخر ٠٠ افريز فى الشرفة الغربية تخلخل فجأة بشكل خطير ٠ ولولا انها لاحظته ودفعت بشىء ما تحته فأنقذ فيليب من نهاية بشعة على القضبان الحديدية السفلية ٠

وهنا التفت هيبوليت لينظر الى ، وجعلنى التعبير الذى على وجهه أتساءل ما الذى قد أخبرته هيلواز عنى ٠٠ بالتأكيد أنه بدا مندهشا الآن ، بينما استمر راؤل فى التحدث عن وليمة منتصف الليل ٠٠ وكأنه بدأ يأخذ صورة مختلفة تماما عنى ، **ثم قال راؤل :**

– وعندئذ ، كان هناك أمر غريب جدا بخصوص هيلواز فى تلك الليلة ٠٠ لقد بدت خائفة ٠٠ ولـــكنها الحادثة الثانية هى التى أزعجتنى بالفعل ٠ وكان هذا هو السبب فى أننى اتصلت بك تليفونيا ٠٠ خيل لى أن أفضل شىء يجب فعله ، من أجلنا ، هو أن نواجهه سويا ونتيقن بما كان يحدث ٠

ومرت برهة صـــمت أخرى ، **اســتمر راؤل بعدها قائلا :**

ـ ومبكرا فى الصباح التالى ، وكان يوم ثلاثاء ، جاءتنى مكالمة من باريس · كانت بعض الأعمال المتعلقة ببلفين · وكانوا يحتاجون الى على وجه السرعة ·· حسن ، لم أرغب فى مغادرة فالمى ، ولكنى قلت لنفسى أنه لا يوجد سبب للقلق ·· لقد أرسلت أطلبك ، وعرفت أن الآنسة مارتن يمكن الوثوق فيها لترعى فيليب ·· ونويت أن أبقى فى باريس حتى مساء الأربعاء ، ثم التقى بك عندما تصل من أثينا ، ونذهب الى فالمى سويا يوم الخميس · ولكنى بدأت أشعر بالقلق مساء الثلاثاء، فقررت أن أعود الى فالمى بأسرع ما أستطيع ، فحصلت على مقعد فى الطائرة المبكرة فى الصباح التالى ، وقدت سيارتى مباشرة الى فالمى ·· وصلت هناك لأجد أن الآنسة مارتن وفيليب اختفيا ·

ثم التفت الى هيلواز قائلا :

ـ على فكرة ، كيف فسرت ذلك لعمى ؟

ظلت صامتة ولم تتكلم · كان وجهها رماديا وميتا ·· وتحركت أصابعها فقط ممزقة الحرير الذهبى من تحتها ·

بدأ هيبوليت فى حرج شديد وهو يقول :

ـ انها لم تكن واضحة تماما · ولكنى فهمت ذلك · وعندئذ تكلمت أخيرا وقلت :

ـ لا يهم ذلك ، سأخبرك بما حدث · لقد اكتشفت مساء يوم الثلاثاء ما كان يخططه مسيو دى فالمى ·· شرب برنارد حتى السكر فى حفلة الرقص وأخبر بيرث، احدى الخادمات ، التى أخبرتنى بالتالى · كان لابد أن أبعد فيليب ·· أنا ·· أنا لم أعرف أين اذهب ·· لقد اختبأنا ، ثم جئنا هنا لننتظرك ·· هذا كل شىء !

استطعت أن أشعر بعينى راؤل على ·· وكان طول الحجرة يمتد بيننا ، فكانت تبدو المسافة مهولة ··

التفت هيبوليت مرة أخرى الى راؤل ، وقال :

ـ استمر · عدت ووجدت أنهما قد ذهبا · أظن انك عندئذ اتهمت ليون بصراحة ؟

ـ حدث · لم أستطع التفكير سوى فى تفسير واحد: أن لندا ·· الآنسة مارتن حصلت على دليل أن فيليب أصبح فى خطر ، وقد أخذته وابتعدت به ·· ولمت نفسى بشدة لأنى تركتهما ، ولذلك طلبت تفسيرا من والدى ·
ـ نعم ؟

ـ لم يكن نقاشا سارا · بدأ بقوله أن كل شيء كان كلاما فارغا · ورفض أن يعترف بأى شيء · وأوحى بأن الآنسة مارتن قد تكون لديها أسباب وجيهة لايذاء فيليب هى نفســـها · وكانت هذه الفكرة ، بالطبع ، مضحكة · فأخبرته عندئذ أنى أنوى أن أجعل الآنسة مارتن زوجة لى ، واذا حدث لها أى مكروه ، فسوف ·· حسن ، لا حاجة لنا لمناقشـــة ذلك ·· فظهرت عليه الدهشة ··

وهكذا كان حال هيبوليت ، وألقى بنظرة ســـريعة على ، ثم قال راؤل فى صوت جاف :

ـ وعندئذ ، غير موقفه · واقترح أننى يجب ·· أن ··· أن أنضم له ، والآنسة مارتن أيضا ، وأشار الى المزايا التى سوف أحصل عليها أنا وزوجتى من وفاة فيليب · ولم يحاول أن يفهم أننى قد لا أنجذب للعــرض · واقترح أن أعثر على لندا واجعل الناس يعتقدون أنها قد هربت لمقابلتى · وعندئذ يمكننا أن نقدم لك بعض الاســـتفسارات ، وتعود أنت الى اليونان ، ونتعامل نحن مع فيليب فيما بعد ·

تعمق الفزع فى وجه هيبوليت وهو يقول :

ـ اكمل !

ـ لم أقل الكثير ·· أنا ·· لا أستطيع · مجرد أننى قلت : لا أنا ولا لندا نوافق على ايذاء فيليب ·· وقلت ، من الأفضل أن نعثر على الاثنين المفقودين بسرعة ·· وفكرت أن لندا قد تكون اتصلت تليفونيا بشقتى بعد مغادرتى لها ، فاتصلت لأكتشف ذلك ، ولكنها لم تفعل · فكرت عندئذ أن يكون أبى قد كذب بخصوص هروبها من فالى ، وأن أمرا ما قد حدث لهما ، وهكذا ·· أوه حسن ، ليس مهما ذلك الآن · وعرفت أنى كنت مخطئا عندما دخل برنارد ، لأنه قال أن أبى قد أرسله للبحث عنهما · وأوضحت لبرنارد الأمر تماما على أنه من الأفضل له أن يعمل معى حاليا ·· وفهم أن اللعبة قد انتهت ! ·· وأرسلته ثانية ليستمر فى البحث ، وخرجت أنا نفسى بسيارتى · هذا كل شىء !

وجلست لا افعل شيئا سوى النظر الى قدمى ··· كان هذا كل شىء · وعلمت فيما بعد أنهم نقبوا الوديان لمدة ستة عشر ساعة متوالية ، واتصلوا بباريس تليفونيا وقاموا بالبحث والاستقصاء فى المستشفيات ··

ثلاثة أمور أصبحت واضحة لى الآن : أولا ، أن ليون لم يكن يعرف أن راؤل يريد أن يتزوجنى بالفعل ··

ثانيا : أن راؤل لا يعرف شيئا عن المؤامرة السريعة الأخيرة فى محاولة تسميم فيليب ٠

ثالثا : منذ قدوم راؤل للبيت وأنا وفيليب لم نكن فى أى خطر ٠ لقد كنا فى أمان طوال اليوم بسبب راؤل ٠

وخيم الصمت وطال السـكون ٠ ونظرت لنهاية الحجرة ٠٠ كان الرجلان يراقبان المرأة الجالسة على كرسيها ٠٠ كانت ساكنة تماما ٠٠ كانت تسند ظهرها على الكرسى وكأنها بلا عظام ، وكانت يداها أخيرا بلا حراك على الحرير الممزق لمسندى الكرسى ٠ وكانت عيناها الشاحبتان مفتوحتين تماما ٠٠ ولم تكن فى حاجة لتتكلم ٠٠

كان صدق القصة مكتوبا على وجهها ٠٠ !

الفصل الحادى والعشرون

انفتح الباب ودخل فيليب · كان يحمل فنجانا من الشوربة ، يتصاعد منه البخار ، بحرص شـــديد بين يديه ، **وأحضره لى قائلا :**

ـ هذا لك ·· لقد اجتزت يوما صعبا ، أيضا ·

ـ أوه ، فيليب ·· !

ولم أستطع أن أقول أكثر من ذلك ·

كان ينظر الى هيلواز الصامتة الساكنة فى كرسيها ، **ثم قال لها :**

– عمتى هيلواز ، هل تريدين أن أحضر لك فنجانا أيضا ؟

فبدأت تبكى عندئذ ، بصوت رفيع جاف بشكل يؤلم من يسمعه ، فقلت بسرعة :

– العمة هيلواز ليست على مايرام · من الأفضل أن تعود ثانية الى جاستون الآن ، ياحبيبى !

فألقى نظرة تعجب ، وذهب فى خضوع ··

كانت هيلواز تبكى ، ولكن بدون دموع فى عينيها ·· وكان جسمها يرتعش · ونظر هيبوليت اليها بشكل عاجز ·· ثم انتقل الى كرسى بجانبها وأخذ احدى يديها بين يديه ووقف راؤل بعيدا عنهما ولايزال مرسوما على وجهه ذلك التعبير المتجمد وهو يخفى أحاسيسه ·

وبدأت هيلواز تتكلم أخيرا · كان صوتها فظيعا ، رفيعا ولاهثا ، وقالت :

– انه حقيقى نعم ، مايقوله حقيقى ياهيبوليت · لقد استطاع أن يجعل ليون يتكلم ·· كان منظرا فظيعا بينهما ·· ولكنى سعيدة أنك عرفت ياهيبوليت · سوف تخرجنا من هذه الورطة ، أليس كذلك ؟ انها ليست موضوعا للشرطة ·· انها موضوع داخل العائلة فقط !

٠٠ برنارد لن يجرؤ على الكلام ٠٠ وراؤل لا يستطيع أن يقول شيئا ٠٠ ليون أبوه ، أليس كذلك ؟ لم يقع أى مكروه ٠٠ فالولد بخير والفتاة على مايرام ٠ لا تنظر الى هكذا يا راؤل ٠ فالفتاة مارتن تحبك : ولن تفتح فمها ، و ٠٠

فقال هيبوليت بانفعال بعد أن ابتعد عنها :

— هيلواز ! عرفت كل هذا ؟ أنت ؟!

فغاصت للخلف فى كرسيها وقالت :

— نعم ، نعم ، نعم ٠٠ كل شىء أبلغك راؤل به ٠٠ سأعترف بكل شىء ، اذا ساعدتنى ٠

والتقت بنظرته المتحجرة **وتغير صوتها :**

— أنا ٠٠ أنا لست شريرة ياهيبوليت ٠٠ أنا لم أرد أن أضر فيليب ، ولكن ٠٠ حسن ، انه كان من أجل ليون ٠٠ فعلت ذلك من أجل ليون ، لقد تحمل بما فيه الكفاية ، دون أن يبعد عن بيته !

فقال هيبوليت :

— اننا نناقش أمرا أكثر جدية بكثير ٠ محاولة قتل ٠٠٠ لطفل !

ـ نعم ، نعم · أعرف · انه كان خطأ ، انه كان اثما ·· ولكنه لم يحدث ، أليس كذلك ؟ أوه ، سوف تكلم ليون بخصوص هذا ، أستطيع قول ذلك ، ولكنك ستعمل على أن يبقى فى فالى ، أليس كذلك ؟ يمكنك الوصول الى بعض الترتيبات ، أليس كذلك ؟ ·· أليس كذلك ؟ ··

ـ لا فائدة من الكلام اكثر من ذلك الآن ياهيلواز ·

بدت غير منصتة · لقد تحطم شيء ما فى داخلها ، والآن لم تستطع التوقف عن الكلام :

ـ سوف تقتله لو ذهب الى بلفين ! وكل مالنا فى فالى ! فالى دنياه ! كان لا يجب أن يولد هذا الطفل أبدا !

ووضعت يديها على وجهها ، بينما انهمرت الدموع من عينيهـــا ·· وفى تلك اللحظة انفتح الباب بعنف ، واندفع وليمبليك للداخل مثل دب غاضـــــب ، فقال هيبوليت :

ـ من أنت بحق الشيطان ؟!

ونظرا لأنه قالها باللغة الفرنسية ، فلم يعره وليم أى انتباه ·· كان يبدو ، كالمعتاد ، مهولا ، انجليزيا

صرفا ، بشعره الأشقر المشوش ، ومسالما جدا · وحملق فى نهاية الحجرة نحوى . **وقال :**

ـ لندا ! ما الذى يحدث هنا ؟ هل أنت بخير ؟!

ـ أوه ، وليم !

وركضت اليه عبر الحجرة بطولها ·

انه لم يطوقنى فى ذراعيه بالضبط ، ولكنه أمسك بى ، **وقال :**

ـ ها أنت ، بخير ! هل أصابك أى مكروه ؟

ـ لا ، أوه لا ، أوه وليم ·· خذنى من هنا !
ومن خلفى سمعت هيبوليت يقول :

ـ هيلواز ، من فضلك · يجب أن تتحكمى فى نفسك· سوف تضرين بصحتك ·

وقال وليم :

ـ تمام · سوف نخرجك من هنا !

ووضع ذراعا حول كتفى وأدارنى نحو الباب ··

ولكن منظر هيلواز ، التى مازالت تبكى لا تملك

السيطرة على نفسها ، كان كثيرا جدا على ، فقلت :
ـ انتظر ياوليم ··

وركعت على ركبتى أمام الكرسى الذهبى الصغير ·· كنت راكعة عند قدمى راؤل · ولم أرفع بصرى اليه ، وهو لم يتحرك اطلاقا ·· وأمسكت بيديها وقلت :

ـ مدام ، لا تبكى · لا تبكى أكثر من ذلك ! ·· لقد انتهى كل ما فى الأمر الآن · هاك ، خذى منديلى ·· لماذا ·· أنت باردة ! ولم تكونى على مايرام فى الفترة الأخيرة ، أليس كذلك ؟ هل ندخل حجرة المكتب ، حيث أنها دافئة ؟ دعينى أساعدك على النهوض !

قامت على قدميها متيبســـة ، وأخذت بيدها الى حجرة المكتب · وسارت معى طوعا ، وكأنها كانت تسير وهى نائمة · كانت مازالت تبكى ، ولكن فى هدوء ·· وتبعنا الآخرون ·

أجلستها على كرسى قريب من المدفأة ، وركعت ثانية بجانبها · لا أدرى تماما ما قلته لها بعد ذلك ، ولكن البكاء توقفبعد قليل ، وقالت فى صوت خفيض ميت :

ـ احببتك يا آنسة مارتن ·· احببتك من البداية !

ـ أعرف أنك أحببتنى ·· أن الأمـــر الآن على مايرام ·· ولا تقلقى الآن ، و ··

ـ انك فعلا لا تلامين على الحوادث ، تعرفين لم نقصد أن نلومك فى البداية ·· ليون أحبك أيضا · انه قال : انها شجاعة كشيطان صغير ، وليس من الرحمة اذا تسببنا لها فى أذى ··

فقال راؤل بهدوء :

ـ ماذا كان يعنى بذلك ؟

ولم تعر ذلك انتباها ·· وبدت واعية فقط بنفسها وبى ·· **ثم قالت :**

ـ وقال من يوم أو يومين فقط · طبعا ، بعد الحادث الثانى ، فى الشرفة · عرفنا أن علينا أن نطردك ·· وقال انك متيقظة أكثر من اللازم : وانك ســـتبدأين فى الشك فينا ، اذا حدث أى شىء آخر · وكنا مسرورين عندما منحتينا عذرا لابعادك · وفكرت أنت أنى كنت خائفة أليس كذلك ؟

ـ نعم يامدام ··

ـ ثم وصلتنا البرقية من هيبوليت ·· وكان علينا

ان نفعل شيئا بسرعة ·· وكانت هناك قصص فى القرية عنك انت وراؤل ، وعن انك على وشك الابعاد والطرد ، فقال ليون ان هذا سيكون مفيدا فيما بعد ·

وسمعت راؤل ياخذ نفسا كأنه سيتكلم ، فقلت :

ـ نعم ، أعرف · ألبرتين بدأت فى الاشاعات أليس كذلك ؟

ـ لم تكن تعرف ماكنا نحاول القيام به · ولكنها لم تكن تحبك · انها لم تحبك اطلاقا ·· انها هى التى ابلغتنى بالخطأ الذى قمت به بخصوص الدواء فى ذلك الوقت ، وأرادت أن أفكر فى أنك مهملة · ولكن ذلك أعطانا فكرة استخدام الأقراص المنومة لتسميم فيليب ·· كان فى السكر ، السم كان فى السكر الذى تستخدميه فى شيكولاتته ·

ـ مدام ·· !

ـ ومن حسن الحظ لم يبق كثير من السكر فى العلبة ، وهكذا ازلنا اللون الأزرق من الأقراص وسحقناها وأعددنا خليطا قويا · ربما أقوى من اللازم ·· ولعله كان شديد المرارة ، لأنه لم يتناوله ، أليس كذلك ؟

– لا ، ولكن هذا لم يكن السبب ٠

والتفت الى هيبوليت وقلت :

– هل لى أن أطلب بعض القهوة يامسيو دى فالمى ؟ ٠٠ فى الحقيقة أعتقد ٠٠

فقالت هيلواز :

– لم يكن لدينا وقت لنفكر فى أى شىء أفضل ٠٠ كان المقصود أن تبدو كحادث ٠٠ واذا كان قد تناولها ومات ، لما فكروا فى جـــريمة قتل ٠٠ الأقراص المنومة زرقاء والدكتور كان ســـيفكر أنه أخذها كحلوى ٠٠ والأطفال يفعلون ذلك أحياناً ٠ ونوينا أننتخلص من بقية السكر المسموم ، ونترك قرصـــا أو اثنين بجانب فراشه ٠ وكنت سأضع زجاجة الأقراص نصف فارغة فى علبة على منضدة حجرة الدراسة ، حيث يمكن أن يكون هناك اعتقاد بأنه عثر عليها وأكل نصفها ٠ وقد يظن رجال الشرطة انك كنت مهملة فقط ونســـيتى أن تعطيها لى ٠٠

ومن خلفى ،قال راؤل :

– ماذاً تقولين يا هيلواز ؟

فكررت قائلة بدون تعبير :

ـ استخدمنا اقراصى المنومة لتسميم فيليب • انها قوية جدا •• ليون قال انها كافية لقتل طفل • سحقناها وخلطناها مع السكر •• السكر التى تستخدمه الآنسة مارتن لشيكولاتة فيليب •• ولكنه لم يشربها ، والحمد لله ••

فقال راؤل :

ـ واذا وضع اللوم على الآنسة مارتن ؟ واذا كانوا قد شكوا فى جريمة قتل ؟ لقد عرفت ، أليس كذلك ، أنها هى وأنا •• هؤلاء الناس كانوا سيقولون أن لديها سببا فى أن تتمنى الموت لفيليب ؟ هل ذلك هو السبب الذى قال من أجله أبى أن القصص التى قيلت عنا قد تكون مفيدة فيما بعد ؟

ولم تقل شيئا ، ورفعت بصـــرها محملقة فيه ، وسألها :

ـ وفى مساء يوم الثلاثاء ياهيلواز ، من هو الذى اكتشف أن فيليب قد ذهب ؟

ـ ليون ، انه ظل مستيقظا • فكر فى أن فيليب قد قد شعر بالاعياء وذهب الى الآنســـة مارتن • ولكن

حجرتها كانت خاوية ، أيضا · ثم أرسل برنارد ليبحث عنهما ·

فقال راؤل :

ـ بهذه التعليمات ؟

فلم تقل شيئا ·

ـ ـ بتعليمات تؤكد على ·· أنهما لا يعودان ؟
ولكنها لم تتكلم · لم تكن فى حاجة لذلك · مرة أخرى كانت الاجابة الفظيعة مكتوبة على وجهها !

فقال هيبوليت بخشونة :

ـ هذا يكفى يا راؤل ·

فقال راؤل :

ـ نعم ، أعتقد هذا ·

ومشى تاركا الحجـــرة وأغلق الباب من خلفه ، **فقامت هيلواز تقول :**

ـ ليون ·· لقد ذهبّ ليقتل ليون !

ثم سقطت فى اغماءة على الســـــجادة بجانبى ·

فتحسستها وهى فى مكانها ، ثم قفزت واقفة محملقة بغباء فى الباب · ثم بدأ التليفون يرن ·

وأســـرعت فى اتجاه الســـلالم · وصرخ وليم من خلفى :

– لندا ·· لندا ! أين أنت ذاهبة ؟ ابعدى نفسك عن هذا !

وزمجر المحرك فى الخارج ، وانطلقت الكاديلاك ·· وركضـــت هابطة الســـــلالم منطلقة الى طريق دخول السيارات ·

وأمسك وليم ذراعى وقال :

– وحق الله يالندا ··

– يجب أن نوقفه ! ·· ألا تفهم ؟ ·· لقد ذهب ليقتل ليون ·· سوف يصبح قاتلا ، وسوف ··

– ولكن لا شىء يمكنك أن تفعليه · انك قلت بنفسك أن الأمر انتهى ·· وما شأنك أنت اذا قتلا بعضهما ؟

– أوه ، ياحبيبى يا الله ، وماشأنى ؟ وليم ، أرجوك ساعدنى ، لا أستطع القيادة · أرجوك ياوليم ، أرجوك !

فقال بهدوء :

ـ حسن جدا ، هيابنا !

أعتقد أن وليم كان سائقا ماهرا مثل راؤل · وفى الحال كنا خارج ثونون وفى الطريق المتجه الى فالمى · ولكن راؤل كان قد بدأ قبلنا ببضع دقائق ، ومعه سيارة أسرع · هل يمكننا أن نلحق به فعلا ؟

كنا على طريق الوادى المستقيم عندما قال وليم :

ـ ما كل هذا الذى يحدث يالندا ؟

ـ ماذا تقصد ؟ أوه ، أنا أنسى دائما أنك لا تتكلم الفرنسية ·· ولا حتى شكرتك على المجيىء ·

ـ لا تفكرى فى ذلك ·· ولكن يستحسن أن تشرحى لى ما هذا الذى يحدث ··

وهكذا أخبرته القصـــة من البداية ، بينما كانت السيارة تزمجر فوق طريق الوادى ·

ولم نر أضواء الكاديلاك الا بعد أن اقتربنا من جسر فالمى ، وكانت الأضواء تتأرجح صـــاعدة المنطعفات على بعد كيلومتر واحد تقريبا ·

واختفت أضواء السيارة عند القمة تحت النوافذ الساطعة للقصر ٠ وأبطأ وليم السرعة للصـــعود فوق الجسر ، ثم توقف فجأة ، وقال :

ــ هل يمكن أن تمر سيارتان على ذلك الطريق ؟

ــ المنعطفات ؟ لا ، ولكن ٠٠

ونظرت الى أعلى ورأيت ســـيارة أخرى بدأت فى النزول من القصر ٠٠ وكانت تقطع المنعطف الأول بحذر ٠٠ وكنت أرتعد بشكل لا ارادى ، ولم أتمالك نفسى ٠ فصحت :

ــ أوه ، وليم !

فوضع ذراعا حولى :

ــ يافتاتى العزيزة ٠ لا تخافى ، ستهبط حالا ٠٠ علينا أن نجلس فقط وننتظر ٠٠

ــ طبعا ، انك لست خائفا ، أليس كذلك ؟

كانت عيناه رقيقتين وهو يقول :

ــ اما أنت فخائفة ؟ خائفة فعلا ؟

ولم أجب ٠ ورفعت بصرى الى قصر فالى المضاء

بشكل لامع وسط سماء الليل · نعم ، كانت قلعة أحلام ·· لندا مارتن من لندن ليس لها مكان هناك ··

وأخيرا هبطت الســـيارة الأخرى ومرت من فوق الجسر ، وأصبحنا فوق المنعطفات ، نسابق متســـلقين الطريق الصاعد بأقصى سرعة ممكنة ، والخوف الذى كان يعض معدتى كان يعضها بحدة الآن ·

وأوقف وليم السيارة عند الساحة الداخلية ، وراء الكاديلاك مباشرة ·· واندفعت صاعدة الســلالم الى الباب الكبير ··

كان سيدون فى البهو ، فقال :

ـ أوه ، آنسة مارتن ·· !

ولكنى تركته وركضت مسرعة فى الممر الطويل الى المكتبة ·

لم يكن هناك أى صوت داخل الحجرة ·· ودفعت الباب بلطف ، وأخذت خطوة للامام ، وتوقفت · كان هناك رجال عديدون فى الحجرة ، ولكنى رأيت اثنين منهم فقط ·

كان راؤل دى فالى واقفا وظهره للباب ، محملقا الى أسفل فى أبيه ·

وللمرة الأولى لم يكن ليون دى فالى فى كرسيه المتحرك · لقد سقط للأمام وتمدد جسده على الأرض بشكل حرج · كانت رأسه تأخذ وضعا جانبيا على السجادة ·· وكان وجهه ناعما ، خاليا الآن من الجمال ومن الشر على حد سواء ·· وكان يوجد فوق عينه اليمنى ثقب صغير أسود ··

وكدت أسقط على الأرض ، لولا أن ذراعى وليم قد أحاطتا بى ، وحملنى خارج الحجرة الصامتة ·· !

الفصل الثانى والعشرون

ـ لندا ٠٠ لندا ٠٠ اشربى هذا !

فتحت عينى فرأيت وليم ممسكا بكوب ملآن يقربه من شفتى ، وأخذت رشفة ٠٠ كان مذاقه فظيعا ، ولكنى استطعت أن أشعر بالدفء يسرى فى جسدى ويعيده الى الحياة ٠ خيل لى أنى محاطة بغلالة لامعة مزمجرة ٠

وانقشعت الغلالة بالتدريج ٠ كنت فى حجرة الجلوس الصـــغيرة ، فوق الكنبة ، وكان وليم واقفا بجانبى ، فسألنى :

ـ كيف تشعرين الآن ؟

فقلت فى بؤس :

ــ أوه ، أحسن ٠٠ أحسن ٠٠ اننى آسفة ياوليم . اننى لم يغم على من قبل أبدا .

وجلس بجانبى ٠٠ وبدأت ذاكرتى تعمل مرة أخرى الآن ، وقلت بألم :

ــ هل ذهبوا به ٠٠ ؟

ــ ليس بعد ٠٠

ــ أريد أن أراه ٠ لحظة واحدة فقط ٠ ضرورى ٠ فبدا مندهشا ، وقال :

ــ ولكن ياعزيزتى لندا ٠٠

ــ متى سيأخذونه ؟

ــ رجال الشــــرطة مازالوا مشــغولين ٠ وعربة الاسعاف فى الانتظار ٠٠

ــ اسعاف ؟ هل هو أصيب ؟ ماذا حدث ؟

ونهضت جالسة وأمســـــكت ذراعه ، فرأيت عينيه تبدوان مفجوعتين ، وقال :

– ولكن ياللندا ‥ ألم تدركى انه ميت ؟

وأمسكت ذراعه باحكام اكثر ، ولابد أنها آلمته ‥

وقال وليم بهدوء :

– لقد أطلق النار على نفسه ، قبل حضورنا الى هنا أنا وأنت وراؤل بقليل ‥

– أوه ! ليون ! ليون أطلق النار على نفسه . عربة الاسعاف من أجل ليون !

وأطلقت ضحكة صغيرة سخيفة ، ثم انفجرت فى الدموع ‥

لم يكن موقفا سهلا بالنسبة لشاب انجليزى خجول ‥ ولكن وليم تصـــرف بشكل لبق جدا ‥ وأعطانى مزيدا من هذا المشروب الفظيع ، ووضع ذراعه الضخمة حولى ، وقال :

– فكرت أنك قد فهمت . كان الســـاقى يخبرنى بخصوص ذلك منذ قليل ، عندما أحضر البراندى لك . فكرت أنك سمعت ‥

– كانت تبدو كأصـــوات فى حلم من الأحلام ‥

وماذا قال سيدون ؟

– قال لى أنه ذهب ليطمئن على نار مدفأة المكتبة، بعد الحادية عشرة مباشرة ، فوجد سـيده ميتا على الأرض ۰ لم يسمع أحد الطلقة ۰ واتصل بالشـرطة والدكتور ، ثم بفيلا أنا ، ولكن لم يرد عليه أحد هناك ۰

– لابد أن هذا كان قبل وصولنا للفيلا ۰۰

– أوه ؟ حسن ، استطاع أن يتصل بمسيو هيبوليت فيما بعد ۰ أعتقد أنها المكالمة الذى جاءت أثناء مغادرتنا للفيلا ۰ هيبوليت فى طريقه الى هنا الآن ۰

فقلت :

– هل هم متأكدين أنه قتل نفسه ؟

– أوه ، تماما ۰ كان المسدس فى يده ۰۰ وهناك رسالة ، حصلت الشرطة عليها ۰ واعترف بالمحاولتين الأولتين لقتل فيليب ، وقال أن برنارد كان يعمل معه ۰ ولكنه قال بوضوح تام أن لا زوجته ولا راؤل عرفا أى شىء بهذا الخصوص ۰۰ وقال أيضـا أنك لابد قد اكتشفت شيئا بطريقا ما ، وهربت مع فيليب لبر الأمان ۰ ولم يذكر حكاية السم الأخيرة ۰۰ أظن أنه لم يرغب فى توريط زوجته ۰

فقلت :

ـ حسن ، لن أخبرهم عنك ٠٠ فأنا لا أريد أن أزيد الأمور سوءا بالنسبة لمدام دى فالى ٠٠ أنه مات الآن ٠٠ وعليها أن تعيش متحملة ذلك ٠

ـ كان هناك أمر آخر فى الرسـالة بخصـوص برنارد ٠

فقلت ببطء :

ـ لقد بدأ برنارد يساعد راؤل طول اليوم ٠

ـ نعم ، ويبدو أنه أدرك أن ليون الآن لا يستطيع أن ينفذ خطته ويدفع له مكافأته ، ولذلك قرر أن يبتزه ٠

ـ **يبتزه !**

ـ نعم ، ان هذا فى الرسالة ٠ جاء ليرى ليون من ثلاث أو أربع ساعات ، وهدده بابلاغ الشرطة عنه ، اذا لم يدفع له مبلغا من المال ٠٠ وهذا ربما ما جعل ليون يقرر أن يقتل نفسه ٠ أقصد ، لا توجد نهاية للابتزاز ، أليس كذلك ؟

فقلت بعد تفكير :

ـ نعم ، كان من النوع الذى لا يسمح لأحد أن يبتزه أبدا ، ويفضل الموت على ذلك ٠٠ ولكنى لا أعتقد ان الأمر كان هكذا فقط ٠٠ أعتقد أنى عرفته معرفة جيدة : أنه لا يحب أن يغلب على أمره ٠ جميعنا ٠ حتى فيليب ٠٠ عـــرف ما قد فعله ٠٠ ولا أعتقد أنه يستطيع تحمل ذلك ٠ كان يحب أن يعتقد أنه أقوى من أى شخص آخر ، وأنه يستطيع أن يلعب بالناس كما يشاء ٠ لم يقدر أبدا على أن يأخذ المكان الثانى بعد غيره ٠ أن يطلق النار على نفسه وينقذ هيلواز بالرسالة ٠٠ نعم ، هذا هو ليون دى فالى بالتمام ٠

واسندت ظهرى على الكنبة وقلت :

ـ حسن ، لقد صنعت أفضل نهاية ، أليس كذلك ؟ هل قبضت الشرطة على برنارد ؟

ـ لا ، لقد اختفى ٠ فلنأمل أن ينجو بهروبه وبعد ذلك لن تعرف بقية القصة أبدا ٠

ـ نعم ، بيرث الصغيرة المسكينة ، أو ، وليم ، اننى متعبة جدا ٠

فبدا قلقا على ، وقال :

ـ هل تريدين الذهاب الآن ؟

– الذهاب ، الى أين ؟ انهم لم يرحبوا بى كثيرا فى فيلا أنا ، وأتوقع فى يوم أو اثنين ســـيرتب مســـيو هيبوليت لعودتى الى انجلترا ٠

فقال وليم :

– أوه ، هاهم رجال الشرطة ، أظن أنهم يريدون استجوابك ٠

وعاملتنى الشرطة بلطف ٠ لقد سمعوا كل القصص عنى من الخدم المرعوبين ، ولكن رسالة ليون دى فالى جعلت الأمر واضحا ولا مدعاة للشك فى ٠

وتركونى عندما وصل هيبوليت ٠ ونهضت لأذهب وأبحث عن بيرث ؛ ولكن فى تلك اللحظة دخل سيدون بالقهوة ٠٠ وأخبرنى أن رجال الشـــرطة قد عاملوها برفق شديد ، وبعد استجوابها أرسلوها فى سيارة تابعة لهم الى منزل أمها فى القرية ٠ فاعتقدت أنهـــا كانت السيارة التى قد أخرتنا عند المنعطفات ٠ والآن كل ما أرجوه أن تستطيع بيرث أن تنسى برنارد ٠

أنهيت قهوتى ورفعت بصرى لأرى هيبوليت داخلا الحجرة ٠ وقبل أن أتكلم جاء الى الكنبة ، وأخذ يدى فى يديه وقبلهما ، وقال :

ـ هذا من أجل فيليب ٠٠ اننا مدينون لك بالكثير يا آنسة مارتن ٠٠ لقد جئت الآن لأشكرك وأطلب منك أن تغفرى لى استقبالى السيىء لك فى فيلا أنا ٠

جلست بلا حراك أثناء حديثه معى ، وكان صوته يشبه تماما صوت راؤل لدرجة أننى لم أسمع الكلمات ٠

ووعيت فجأة أنه قد ترك الماضى وكان يتحدث عن المستقبل :

ـ فيليب سيبقى معى فى فيلا أنا حاليا ٠٠ آنسة مارتن ٠٠ هل يكون كثيرا لو آمل ، بعد تجربتك الفظيعة، أن تبقى معه ؟

فحملقت فيه بغباء ، قبل أن أعى ما كان يطلبه وقلت :

ـ أنا ٠ أنا لا أعرف ٠ فقط فى هذه اللحظة ٠٠

ـ أدرك جيدا ٠ لم يكن لى حق أن أطلب منك الآن ٠٠ انك تبدين مرهقة جدا ياطفلتى ٠٠ يمكنك أن تفكرى فيما بعد ٠٠

وجاء صوت غريب من الممر ، صوت بطىء وثقيل ٠ عندئذ عرفت ماهو : ليون يغادر قصر فالمى ٠

وقال هيبوليت :

– اذا فضلت ألا تقضين الليلة هنا ، فهناك مكان من أجلك حسب ما ترغبين فى فيلا أنا ٠٠

– أوه ، أشكرك ، نعم ، أود ذلك !

– اذن اذا أمكننا العثور على أحد ليأخذك الى هناك ٠٠ ؟

ونظر الى وليم ، الذى قال فى الحال :

– طبعا !

خرج هيبوليت من الحجرة ٠

وجاء وليم وجلس بجانبى على الكنبة ، وقال :

– لندا ٠٠

وأخذ يدى الباردتين فى يديه ٠٠ كانت يداه لطيفتين، ٠٠ يدان ثابتتـــان ،حســـاستان ، وفجأة عرفت ما أراد أن يقوله ٠ فجلست أكثر اعتدالا ، ونظرت اليه فى حزم ، وقلت :

– وليم ، لقد كنت مدهشا · ماذا كنت سأفعل من غيرك ، لقد كنت صديقى الوحيد ·

فقال :

– الأصدقاء موجودون عند الحاجة ·

وفهم ، فترك يدى ، ومرت لحظة سكون ·· ونهض قائلا :

– هل آخذك الى فيلا أنا الآن ؟

– لا ··· أنا ··· أنا ··· أعتقد سأنتظر ·· تصبح على خير ياوليم ، و ·· شكرا !

الفصل الثالث والعشرون

ونسيت وليم تقريبا بمجرد اغلاق الباب الأمامى خلفه ‥ وخرج شخص ما من المكتبة ، واستطعت سماع هيبوليت وراؤل ، يتحدثان بهدوء فى الممر ‥

فتحركت تجات الباب ، مبتعدة عن الأبصار ‥ كان هيبوليت يقول شيئا ما عن هيلواز ‥ سمعت بعض الكلمات : « تبقى بالبيت » و « قلب سيىء » !

ووصلوا الى البهو ‥ وكان هيبوليت يقول له « تصبح على خير » · وترددت فى الممر ، منتظرة أن يتركه هيبوليت · وكنت أرتعش ‥

وسمعت راؤل يسأل سؤالا ، ولم أستطع أن أسمع اجابة سيدون تماما ، كانت تبدو مثل « ذهبت » .. ثم سمعت سؤالا آخر من راؤل ، وكانت اجابة سيدون فى هذه المرة أوضح :

ـ نعم ، ياسيدى . منذ بضع دقائق !

فقال راؤل فى صوت جامد :

ـ فهمت ، شكرا ياسيدون !

عندئذ أدركت ما كان يسأله . فركضت فى الممر منادية :

ـ راؤل !

ولكن الباب الأمامى كان قد أغلق .

ثم وصلت البهو عندما سمعت صوت المحرك يبدأ ،

وقال سيدون مندهشا :

ـ لماذا يا آنسة مارتن ؟ لقد اعتقدت أنك ذهبت مع مستر بليك !

فلم أجب ، واندفعت عبر البهو وخرجت فى الظلام . كانت الكاديلاك قد تحركت من قبل ، فناديت ثانية ،

ولكنه لم يسمع ٠ وبدأت أجرى بلا جدوى ٠ كنت مازلت خلف السيارة بعشرين متراً عندما دلفت فى أول منحنى من المنعطفات ، واختفت عن البصر ٠

اذا كنت قد توقفت لأفكر ، لما كنت قد فعلت ما فعلت ولكن كان التفكير العاقل يعوزنى آنئذ ٠ كنت أعرف فقط أن لدى شيئا ما لأقوله لراؤل٠

واســـتدرت بلا تردد وأخذت المر الذى يغوص بانحدار الى أسفل جانب التل ، تجاه جسر فالمى ٠٠ وكان المر زلقا وفى الظلام يمكن أن يكون خطرا ٠٠ ولم أعبأ ، وكنت لا أزال أحتفظ بكشاف فيليب فى جيبى ، وبواسطة ضوئه الخافت ركضت هابطة السلالم عند قمة التل ٠٠

وعند أول منعطف الى اليســار ظهرت أضـــواء الكاديلاك ٠ كان يقودها ببطء ٠ واندفعت هابطة عبر الغابة ٠ وكان لايزال تحتى عندما أخذ أول منحنى ، والثانى ٠

كان المر يتلوى هابطا كالثعبان ٠ وكانت أضواء السيارة تضىء كل الغابة حاليا ، وبدت ظلال الأشجار وكأنها تتحرك لتمسك بى ٠٠ كان الجزء الثالث من المنعطفات هو أطولها ، فكان المر أكثر انحدارا هنا ،

وكدت أسقط عدة مرات ·· وضربنى فرع شـــجرة فى وجهى ، ولكنى لم أعره انتباها ، وصرت تحته عندئذ ·· واستطعت أن الحق به ··

وسقطت داخل الطريق فى نفس الوقت الذى كانت أضواء السيارة تكتسح المنحنى الأخير ·· فأغلقت عينى وبسطت يدى ··

وصرخت الفرامل والعجلات لتقف ·· وفتحت عينى وأخذت ثلاث خطوات مرتعشة نحو السيارة ، واستندت جانبا وأنا أتصارع مع أنفاسى ··

وخرج من السيارة ، من الجانب الآخر · وفى ضوء الســـيارة الســـاطع بدا أطول كثيرا ، واستطعت أن أقول :

ـ كان يجب أن ·· أراك !

فقال فى صوت خفيض :

ـ قالوا لى أنك قد ذهبت · أيتهـــا الحمقـــاء الصغيرة ،كدت أن أقتلك !

ـ كان على أن أخبرك أننى كنت آسفة ، ياراؤل ! ولم يتكلم ··

ـ أنا لا أحاول أن أجد العذر لنفسى ·· أنا أعرف

أنك لن تغفر لى لارتيابى فيك ٠ ٠راؤل ، أريد فقط أن تتفهم قليلا ٠٠ لقد قالوا لى ، بوضوح تام ، أنك كنت متآمرا مع الآخرين ٠٠ لقد قال برنارد ذلك لبيرث ٠٠ أخبرها بأنك قمت باطلاق النار فى الغابة ٠٠ ولم أصدق ذلك ٠ ٠لم أستطع ٠٠ ولكن لم يكن هناك أى شىء يثبت أنك لم تكن مشتركا فى المؤامرة ٠٠ لا شىء ماعدا ٠٠ الطريقة التى كنت أشعرها نحوك ٠٠

وتوقفت محاولة أن أرى التعبير الذى على وجهه ، ثم قلت :

– لقد مررت عبر الجحيم منذ مساء الثلاثاء ٠ كل شىء كان يتجه لاتهامك ، ولم أستطع أن أثق فى أحاسيسى أكثر من ذلك ٠٠ ببساطة لم أستطع المجازفة يا راؤل !

– كنت مستعدة للمجازفة ٠٠ ذات يوم ٠٠

– من أجل نفسى ، نعم ٠ ولكن هذه المرة كان فيليب ٠٠ لم أستطع أن أجازف بفيليب ٠ لم يكن هناك شخص آخر ليهتم به ٠٠ كنت كل من لديه ٠٠ وغير ذلك ، لم يكن مهما ٠٠

– ما هو الذى لم يكن مهما ٠

فقلت :

ـ انك كنت كل من لدى ·

صمت آخر ·· كان واقفا ساكنا جدا الآن ، ظلا وحيدا فى ظلام مضاء بطريقة غريبة · ·وفكرت فجأة أن هذه هى الطريقة التى سوف أتذكره فيها دائما : رجل يقف وحيدا ، مبتعدا عن كل الآخرين ·

ولأول مرة ،بدأت أراه كما هو حقا ،لا كما يصوره خيالى الرومانتيكى · كان هذا هو راؤل ، الذى كان صبيا صغيرا وحيدا فى منزل كان « ليس منزلا للأطفال » وكان شابا تعسا غير سعيد ، يقاتل بمرارة ضد أب قوى · ·جامح ، ربما ، قاسى ، ربما ، ولكنه دائما وحيد ·· **فقلت بلطف :**

ـ ماذا يمكن أن أقول عن أبيك ، ســـــوى أننى آسفة ؟

فقال :

ـ هل تعتقدين حقا أننى كنت سأطلق النار عليه ؟!

ـ لا ياراؤل !

برهة صمت ، ثم قال فى صوت غريب جدا :

– أعتقد أنك تفهمين فعلاً ·

– أعتقد أنني أفهم يا راؤل ، وأريدك أن تعرف ذلك ، ثم سأذهب · أحببتك طوال الوقت ، بدون توقف ، وأحبك الآن ·

والتفت فى اتجاه القصر ·

– أين تذهبين ؟

– شخص ما سيأخذنى الى فيلا أنا · طلب منى عمك هيبوليت أن أذهب هناك ·

– اركبى السيارة ، سآخذك الى هناك ··

وعندما ترددت ، قال :

– ادخلى · الى أين تعتقدين كنت ذاهبا ؟

– لا أعرف ·· هل كنت ستذهب بعيدا ؟!

– كنت ذاهبا الى فيلا أنا لأبحث عنك ·

ولم أتكلم ، ولم أتحرك ·· كان قلبى يدق بعنف عندما قال :

– لندا ·· !

وأصبح صوته مثلما كان دائما ٠ ودخلت ، ودخل بجانبى ٠٠ كانت السيارة مظلمة من الداخل ٠ وبدا هو ضخما ، وقريبا جدا ٠٠ كنت أرتعد ٠٠ ولم يتحرك ليلمسنى ٠٠

ـ لندا ، هل تنوين أن تبقى فى فيلا أنا لفترة مع فيليب ؟

ـ لا أدرى ٠ لم أفـــكر فى أمورى بعد ٠٠ اننى مغرمة به جدا ، ولكن ٠٠٠

ـ سيكون وحيدا ، حتى مع هيبوليت ٠ هل نأخذه معنا فى بلفين ؟

فقلت مبهورة لاهثة :

ـ راؤل ، راؤل ، لم أفكر ٠٠

ورفعت يدى المرتعشتين الى وجهى ٠

ـ ما هذا يا حبيبتى ؟

فقلت وأنا داخل يدى :

ـ هل مازلت ٠٠ تريدنى ؟

ـ ولم يجب ٠٠ والتفت فجأة نحوى وشدنى اليه ٠

وما قلناه عندئذ أصبح من ذكرياتنا ·· لقد تكلمنا لمدة طويلة ··

وفيما بعد ، عندما أصبحنا قادرين على ان نضحك ثانية ، **قال :**

– انك لم تجعلينى أعترف لك ، ياحبيبتى لندا ·

– ماذا تقول ؟ تعترف بماذا ؟

– بأنى أحبك ، أحبك ، أحبك !

– أوه ، الى هذا الحد ؟!

– نعم ·· الى هذا الحد !

فقلت :

–وأنا لك

وهبطت السـيارة عندئذ بلطف وعبرت جسـر فالمى ····

❋ ❋ ❋

اقرأ فى هذه السلسلة

١ ـ **أوليفر تويست :**
تأليف : تشارلس ديكنز

ترجمة : مختار السويفى

٢ ـ **الآمال الكبرى :**
تأليف : تشارلس ديكنز
ترجمة : مختار السويفى

٣ ـ **ثورة على السفينة بونتى :**
تأليف : وليم بلاى
ترجمة : مختار السويفى

٤ ـ **مغامرات شيرلوك هولمز :**
تأليف : سير آرثر كونان دويل
ترجمة : محمد العزب موسى

٥ ـ **المغامرات المرحة لروبن هود :**
تأليف : هوارد بايل
ترجمة : نادية فريد

٦ - **الغــاز :**
تأليف : ادجار الان بو
ترجمة : نادية فريد

٧ - **عائلة من سويسرا :**
تأليف : يوهان فايس
ترجمة : سناء صليحة

٨ - **مغامرات توم سوير :**
تأليف : مارك توين
ترجمة : مختار السويفى

٩ - **مغامرات هكلبرى فين :**
تأليف : مارك توين
ترجمة مختار السويفى

١٠ - **رحلة كون تيكى :**
تأليف : ثور هايردال
ترجمة : محمد العزب موسى

١١ - **حكايات من شكسبير(١) :**
تأليف : وليم شكسبير
ترجمة : الشريف خاطر

١٢ ـ **المزيف :**
تاليف : روبرت أونيل
ترجمة : صبرى الفضل

١٣ ـ **المخطوف :**
تاليف : روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة : صبرى الفضل

١٤ ـ **الفرسان الثلاثة :**
تاليف : الكسندر دوماس
ترجمة : صبرى الفضل

١٥ ـ **الأرض الطيبة :**
تاليف : بيرل بك
ترجمة : صبرى الفضل

١٦ ـ **حول العالم فى ثمانين يوما :**
تاليف : جول فيرن
ترجمة : صبرى الفضل

١٧ ـ **رحلة الى مركز الأرض :**
تاليف : جول فيرن
ترجمة : صبرى الفضل

١٨ - **سجين زندا :**
تأليف : أنتونى هوب
ترجمة : محمد العزب موسى
١٩ - **آنا كارنينا :**
تأليف : ليو تولستوى
ترجمة : محمد العزب موسى
٢٠ - **جين اير :**
تأليف : شارلوت برونتى
ترجمة : صبرى الفضل
٢١ - **مرتفعات وذرنج :**
تأليف : اميلى برونتى
ترجمة : صبرى الفضل
٢٢ - **رجال عظام ونساء عظيمات :**
تأليف : ليزلى ليفيت
ترجمة : مختار السويفى
٢٣ - **دافيد كوبرفيلد :**
تأليف : تشارلس ديكنز
ترجمة : مختار السويفى

٢٤ ـ **حكاية مدينتين :**
تأليف : تشارلس ديكنز
ترجمة : حسين البنهاوى

٢٥ ـ **أوقات عصيبة :**
تأليف : تشارلس ديكنز
ترجمة : د . على كامل شحاته

٢٦ ـ **مذكرات بيكويك :**
تأليف : تشارلس ديكنز
ترجمة : د . أنور شتا

٢٧ ـ **توم جونس :**
تأليف : هنرى فيلدنج
ترجمة : نادية فريد

٢٨ ـ **الزنبقة السوداء :**
تأليف : الكسندر دوماس
ترجمة : صبرى الفضل

٢٩ ـ **بعيدا عن الناس :**
تأليف : توماس هاردى
ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال

٣٠ ـ **العقل والعاطفة :**

تاليف : جين اوستن

ترجمة : صبرى الفضل

٣١ ـ **الكبرياء والهوى :**

تاليف : جين اوستن

ترجمة : صبرى الفضل

٣٢ ـ **حكايات من شكسبير(٢) :**

تاليف : وليم شكسبير

ترجمة : الشريف خاطر

٣٣ ـ **ذات الرداء الأبيض :**

تاليف : ويلكى كولينز

ترجمة : نادية فريد

٣٤ـ **جزيرة الكنز :**

تاليف : روبرت لويس ستيفسون

ترجمة : مختار السويفى

٣٥ ـ **كنوز الملك سليمان :**

تاليف : سير رايدر هاجارد

ترجمة : مختار السويفى

٤٢ ـ شجرة الجاكاراندا
تأليف : هـ ٠ ا ٠ بيتس
ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال

٤٣ ـ كيبس
تأليف : هـ٠ج٠ ويلز
ترجمة : عبد الغنى داود

٤٤ ـ من الأرض الى القمر
تأليف : جولفيرن
ترجمة : صبرى الفضل
تأليف : جول فيرن

٤٥ ـ أول رجال على سطح القمر
تأليف : هـ ٠ ج ٠ ويلز
ترجمة : صبرى الفضل

٤٦ ـ آخر أيام بومبى
تأليف : لورد ليتون
ترجمة : صبرى الفضل

رقم الايداع ١٩٨٨/٨٢٣٥
الترقيم الدولى ٧ ـ ٢٠١٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب